

قصة أصحاب الأُخْدود في الوحيين
(البيان القرآني وحديث صهيب الرومي
في صحيح مسلم)
”بين التشابه والاختلاف“

إعداد

عبد الهادي أحمد سيّد عبد العال

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية جامعة الأنزهر بالمنوفية.





قصة أصحاب الأخدود في الوحيين (البيان القرآني وحديث صهيب الرومي في صحيح مسلم) "بين التشابه والاختلاف"

عبد الهادي أحمد سيد عبد العال

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بشبين الكوم ، جامعة الأزهر،
المنوفية، مصر .

البريد الإلكتروني: imabdelhady@yahoo.com

الملخص:

يعمد هذا البحث إلى دراسة قصة أصحاب الأخدود في بيان الوحيين؛ لرصد أوجه التشابه والاختلاف بينهما، والوقوف على أسباب ذلك وتعليه ما أمكن. وقد اعتمد هذا البحث على المنهج المقارن الذي يقوم على استقراء القصة في الوحيين، من حيث المقصد والسياق، والمفردة، وبنية معاهد الجمل، وتصوير المعاني، ومجمل ما اشتملت عليه القصة وما ذُكر في كل منهما وما طُوي ذكره، والأسلوب القصصي المُختار، مع بيان ما فيهما من دلالات بلاغية، ومحاولة الوقوف على أسباب كلٍ من التشابه أو الاختلاف، والكشف عن مقتضيات الأحوال؛ لبيان أسرار اختصاص كلٍ بما ورد فيه.

وكان من نتائج هذا البحث: بيان كيف تلائم محتوى القصة - في كلاً الوحيين - مع سياقها ومقصدها، وكيف تناسلت معانيها وتفرعت أفكارها من معنى واحد، وكيف تناغمت ألفاظها وتناسقت على نهج يسير في مجرى المعنى، فجاءت وحدة متكاملة مترابطة، ناطقة بما يُتَبَّتُ أفئدة المضطهدين، ويُهدِّدُ الطغاة المتجبرين، ويتوعددهم بأشد العذاب؛ جزاء وفاقا على جرائمهم وأن توظيف الأشخاص جاء متلائماً مع سياق القصة وهدفها في الوحيين،



ومع غايات الرسائل الإلهية؛ تثبتنا وتسلية وتصبيرا لكل من يتعرض للإيذاء في سبيل العقيدة.

الكلمات المفتاحية: التشابه، الاختلاف، قصة، أصحاب، الأُخدود.



The story of the owners of al-Okhdood in the two revelations (The Qur'an statement and the hadith of Suhaib al-Rumi in Sahih Muslim) "Between similarity and difference"

Abdel Hadi Ahmed Sayed Abdel Aal

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Shbeen El Koom, Al-Azhar University, Menoufia, Egypt

Email: imabdelhady@yahoo.com

Abstract:

This research aims to study the story of the owners of the groove in the statement of the revelations: To monitor the similarities and differences between them, and the reasons for that and explain it as possible.

This research relied on the comparative approach that is based on extrapolating the story in the two revelations, in terms of purpose and context, singularity, structure of sentence complexes, depicting meanings, the entirety of what the story contained, what was mentioned in each of them and what was mentioned, and the chosen narrative style, with an explanation The rhetorical connotations in both of them, and try to find out the reasons for each of the similarities or differences, and to reveal the requirements of the circumstances; To clarify the secrets of each jurisdiction as stated in it.

Among the results of this research: a statement of how the content of the story - in both revelations - fits with its context and purpose, how its meanings and ideas branched out from one meaning, and how its words harmonized and harmonized in a way that follows the course of meaning,



so it came as an integrated, interconnected unit, speaking in a way that confirms the hearts of the persecuted. He threatens the arrogant tyrants, and promises them the most severe torment; Recompense and agreement for their crimes, and that the employment of persons was consistent with the context and purpose of the story in the two revelations, and with the aims of the divine messages; An affirmation, entertainment and comfort for everyone who is subjected to abuse in the cause of the faith.

Keywords: similarity, difference, story, owners, groove.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدا توجبه سوابغ نعمه، فإن نعمة واحدة لا يوفيهها بعض حقها حمد الحامدين دهرَ الدهرين وأبدَ الأبدین، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم، وبعد،،،

فإن القصص القرآني ليس مجرد أحاديث أسطورية مُغرقة في الوهم، أو أخبار أمٍ خالية مُبعدة في الخيال، إنما هو أجناسٌ أدبيةٌ فنيةٌ رفيعةٌ، تنقل لنا أحداث الماضي في القالب الذي عرفه العربُ وعشقه، نقلا صادقا يعرضُ الواقعَ وما تلبَّسَ فيه من مكنونات الضمائر، وسرائر النفوس، وخلجات الصدور، ممن أحاط بكل شيء علما؛ ليكون ألزمَ في التوجيه، وأقوى في الوعظ، وأوقع في لفت الأنظار، وجذب العقول، وإثارة الوجدان، وتحريك الأذهان نحو مرامي الشريعة السامية وغاياتها الهادفة^(١) مع ملاءمته جميع مقتضيات الأحوال، وعلائق المعاني^(٢).

وبما أن السنة النبوية - في المقام الأول - شارحةٌ وموضحةٌ ما في البيان القرآني فقد حفلت بكثير من قصص السابقين، واستقرأ أحوال الصابرين الثابتين على العقيدة، المتمسكين بالحق؛ لتشرح ما يُراد من

(١) ينظر: بدائع الإضمار القصصي في القرآن، كاظم الظواهري ٣١٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، والجملة القرآنية في قصة صالح عليه السلام دراسة بلاغية، صلاح الدين محمد أحمد غراب ٢٠، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني د/ عمر محمد بايادق: ٣٥٠ طبع دار المأمون للتراث الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

المعاني بالأمثلة التي تجسد الواقع في صورة الماضي؛ وتشدُّ من أزر المستضعفين في مواجهة الصعاب، وتُؤيِّ عزائمهم، أسوةً بمن سبقوهم على الطريق المستقيم، ومن القصص التي وردت في بيان الوحيين قصة أصحاب الأخدود، فأحببتُ أن أتناولها بالدراسة التي تكشف أوجه التشابه والاختلاف بين ما جاء في بيان الوحيين، وقد وردت القصة في البيان القرآني مرة واحدة وبشكل موجز ومختصر في سورة البروج، وفي البيان النبوي في حديث صهيب الرومي - رضي الله عنه - في صحيح مسلم، فكانت هذه الدراسة تحت عنوان: قصة أصحاب الأخدود في الوحيين (البيان القرآني وحديث صهيب الرومي في صحيح مسلم) "بين التشابه والاختلاف"، وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

تحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع وخطته والمنهج الذي سرت عليه فيه، والدراسات السابقة، ثم ذكرت بعد ذلك نصَّ القصة في الوحيين.

أما **المبحث الأول** فقد كان بعنوان: المقصد والسياق في قصة الوحيين بين التشابه والاختلاف، وفيه مطلبان:

١- المقصد في قصة الوحيين ٢- سياق القصة في الوحيين.

المبحث الثاني: البنية في قصة الوحيين بين التشابه والاختلاف، وفيه ثلاثة مطالب:

١- المفردة ٢- بنية معاهد الجمل ٣- تصوير المعاني في القصة.

المبحث الثالث: الحذف والذكر في قصة الوحيين بين التشابه والاختلاف، وفيه ثلاثة مطالب:

١- المطلع ٢- محتوى القصة ٣- التعقيبات الختامية.



المبحث الرابع: الأسلوب القصصي في الوحيين بين التشابه والاختلاف، وفيه مطلبان:

(أ) أسلوب القصة في البيان القرآني

(ب) أسلوب القصة في البيان النبوي

الخاتمة: وذكرت فيها أهم النتائج، أعقبها بثبت بأهم المراجع والمصادر.

وقد كان منهجي في هذا البحث يقوم على استقراء القصة في الوحيين، محاولاً رصد أوجه التشابه والاختلاف بينهما، من حيث المقصد والسياق، والمفردة، وبنية معاهد الجمل، وتصوير المعاني، ومجمل ما اشتملت عليه القصة وما ذُكر في كل منهما وما طُوي ذكره، والأسلوب القصصي المُختار، مع بيان ما فيهما من دلالات بلاغية، ومحاولة الوقوف على أسباب كلٍّ من التشابه أو الاختلاف، والكشف عن مقتضيات الأحوال؛ لبيان أسرار اختصاص كلٍّ بما ورد فيه، على أنه لم يكن من همّ البحث (إذ لم يكن عنوانه المسائل البلاغية في قصة الوحيين) رصد جميع ما في القصة من خصائص بلاغية، أو الوقوف عند كل كلمة أو أسلوب أو خصيصة، إنما همُّه رصد أوجه التشابه والاختلاف في القصة بين الوحيين، ومحاولة تحليلها، وهذا ما عناه بـ (بين التشابه والاختلاف) في عنوان البحث.

الدراسات السابقة:

قصة أصحاب الأخدود كغيرها من القصص الإسلامي التي تناولها الباحثون بالدراسة والبحث، وقد جاء تناولها على نوعين:

الأول: باحثون أفردوها بالبحث والدراسة، ومنهم:

١- محمود عشري، قصة أصحاب الأخدود (١) لقد كان في

قصصهم عبرة لأولي الألباب، موقع طريق الإسلام.

٢- أبو عبد الملك أحمد بن فتحي البكري، قصة أصحاب الأُخْدود

فوائد وعبر، موقع WWW.Pdffactory.com

٣- الشيخ أحمد أبو عيد، الإرشادات الإسلامية في الخطب

المنبرية (قصة أصحاب الأُخْدود نموذجاً لبيان إحدى سمات المسلم الشخصية).

٤- أحمد بهجت، قصص القرآن، أصحاب الأُخْدود، مطبعة دار

الشروق، القاهرة ط: الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، وكان تناول

في الدراسات إما: دعويًا، يركز على جوانب الاعتبار والاعتاظ؛

للتأسي والعمل، والوصول إلى قلوب الناس وعقولهم، والأخذ

بأيديهم إلى الطريق القويم، كما في الدراسات الثلاث الأولى، أو

تناولاً أدبياً يمزج الحقائق الثابتة التي ورد بها القرآن والسنة

بالخيال، كما فعل أحمد بهجت في الدراسة الرابعة، ولم يلتفت

أي من هذه الدراسات إلى الجوانب اللغوية، واللمسات البيانية،

أو اللطائف البلاغية، والمقارنة بين ما جاءت به السنة وما ورد

في النظم العليّ (القرآن الكريم)، وهذا ما جاءت هذه الدراسة له

ومن أجله.

الثاني: باحثون تناولوها مع غيرها من قصص القرآن، ومنهم:

١- د/ صلاح عبدالفتاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن

دروس في الإيمان والدعوة والجهاد، دار القلم، دمشق، ط

الخامسة ٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

٢- د/ سعيد عبدالعظيم، قصص القرآن عظات وعبر، دار العقيدة للتراث، ط الأولى، ٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م، وهي دراسات على ما بذله أصحابها من جهدٍ يُذكر فيُشكر، غير أنها يغلبُ عليها الطابعُ الوعظيُّ الدعويُّ الواضح من عنواناتها، بخلاف الدراسة الحالية التي تقوم على استقراء القصة في الوحيين، من حيث المقصد والسياق، والمفردة، وبنية معاهد الجمل، وتصوير المعاني، ومجمل ما اشتملت عليه القصة وما ذُكر في كل منهما وما طُوي ذكره، والأسلوب القصصي المُختار، مع بيان ما فيهما من دلالات بلاغية، ومحاولة الوقوف على أسباب كلِّ من التشابه أو الاختلاف، والكشف عن مقتضيات الأحوال؛ لبيان أسرار اختصاص كلِّ بما ورد فيه.

أولاً: القصة في البيانين: القرآني، والنبوي.

١- القصة في البيان القرآني:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُحْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^ج وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْكَبِيرُ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ
 الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ
 حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ
 مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢-١﴾
 البروج: ١-٢٢.

٢- القصة في البيان النبوي:

روى الإمام مسلم في صحيحه، قال: حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا
 حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهِيبِ بْنِ
 رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ
 سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السِّحْرَ.
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ
 كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ
 صَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي.
 وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيَّنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ
 عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟
 فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ
 هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَفَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبُ
 فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بَنِي، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا
 أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسَ لِمَلِكٍ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَأَمَّنَ بِاللَّهِ، فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُيِّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ، وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَعْرِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرُخُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتُمْ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَعْرِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتُمْ، فَاثْكَفَاتُ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرَفُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ

كِنَانَتِي، ثُمَّ صَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاجِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جَذَعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَصَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأَتَى الْمَلِكُ فَعِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّكِ فُخِّدَتْ، وَأَصْرَمَ النَّيْرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمِ، فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهُ، اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ (١).

(١) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، حديث رقم (٧٧٠٣) ٢٢٩/٨، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر، دار الجيل، ودار الأفاق الجديدة، بيروت.



المبحث الأول: المقصد والسياق في قصة الوحيين بين التشابه والاختلاف.

المطلب الأول: المقصد في قصة الوحيين:

يتلخص مقصد القصة الرئيس فيما اشتملت عليه من عظات وعبر؛ لتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم (١) ومن آمن معه، وتخفيف ما يلقونه من أذى المشركين، وتسليتهم، وتبشيرهم بحسن عاقبة الثابتين على الحق، وخذلان مخالفيهم، وسوء عاقبتهم؛ تحذيرا من خطر الغفلة والبعد عن الاستقامة ومعاداة الحق، من خلال التذكير بمن تنكبوا عن طريق الهداية من الأمم الغابرة والأقوام البائدة، كما يوضح ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۗ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ الأنعام: ٣٤، وقوله: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ هود: ١٢٠، ويشهد لهذا السياق المقالي للحديث، فيما رواه البخاري من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، الذي ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جزءا من العذاب الذي تعرض له المؤمنون السابقون (الشق بالمناشير) في القصة، حيث يقول: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا قَيْسٌ، عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأُرْتِ، قَالَ: شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ

(١) هذا في البيان القرآني، أما في البيان النبوي فهي لتثبيت أفئدة المؤمنين، وتخفيف ما يلقونه... .

لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ (١)".

وهو ما تؤيده، بل تؤكدُه روايةُ الترمذي عن صهيب من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر مع هذا الحديث حديثاً آخر، قال: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلَانَ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، الْمَعْنَى وَاحِدٌ، قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ هَمَسَ - وَالْهَمْسُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ تَحْرُكُ شَفْتَيْهِ كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ - فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا صَلَّيْتَ الْعَصْرَ هَمَسْتَ؟ قَالَ: "إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ فَقَالَ: مَنْ يَوْمٌ لَهُؤُلَاءِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ حَيَّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَبَيْنَ أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، فَاخْتَارُوا النِّقْمَةَ، فَسَلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا"

(١) (صحيح البخاري) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على القتل، حديث رقم (٦٩٤٣)، ٢٠/٩، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، تاريخ نزول القرآن الكريم ٢١٤.



قَالَ: وَكَانَ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرَ قَالَ:
"كَانَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ... (١)"

فضلا عما في القصة من تربية النفوس، وتقويم السلوك، وتصويب مناهج الآداب، وأخذ العبرة والعظة من أحوال السابقين وما جرى لهم، وبيان رسوخ عقيدة التوحيد، وثباتها عبر العصور والأزمان، فجميعُ الرسل والأنبياء، وكلُّ الصالحين والمصلحين إنما كانت ولا زالت وستظل عقيدتهم ودعوتهم توحيد الله سبحانه، وإخلاص العبادة له، وهذا ما تشترك فيه القصة مع نظيراتها من قصص القرآن والسنة، قال ابن عاشور: "ابتدئت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقا ممن آمن بالله، فجعلوا أخدودا من نار لتعذيبهم؛ ليكون المثل تشبيهاً للمسلمين، وتصبيرا لهم على أذى المشركين، وتذكيرا بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثله ولم يصدهم ذلك عن دينهم، وإشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر. والتعريض للمسلمين بكرامتهم عند الله تعالى، وضرب المثل بقوم فرعون وبثمود، وكيف كانت عاقبة أمر من كذب

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، ٤٣٧/٥، باب ومن سورة البروج، حديث رقم (٣٣٤٠) الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

الرسول، فحصلت العبرة للمشركين في فتنهم المسلمين وفي تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم. والتتويه بشأن القرآن^(١).

المطلب الثاني: سياق القصة في الوحيين:

سورة البروج واردة في سياق الحديث عن قدرته تعالى على تنعيم الولي، وتعذيب الشقي بمن عذَّبَهُ في الدنيا، وضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة؛ تسلياً لقلوب المؤمنين، وثبيتاً لهم على أذى الكافرين^(٢) في مكة قبل الهجرة، فقد تعرَّض النبي صلى الله عليه وسلم لشتى صنوف الأذى، حتى قال: "لقد أُؤذيتُ في الله وما يؤذى أحد، ولقد أُخِفْتُ في الله وما يُخافُ أحد، ولقد أتت علي ثلاثة ومالي ولبلال طعام يأكله نو كبد إلا ما وارى إبط بلال^(٣)"، ولقي أصحابه ألواناً من التتكيل والتعذيب، حتى إنه لا

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) ٢١١/٣٠، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، ٣٧٦/٨، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، والتحرير والتنوير ٢١١/٣٠.

(٣) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٥٤/١، حديث رقم (١٥١)، دار الفكر - بيروت بدون، وقريب منه ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في شعب الإيمان تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ٢٣٩/٢، حديث رقم (١٦٣٢)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٠هـ، كما رواه محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ٥١٥/١٤، رقم (٦٥٦٠)، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، وأبو يعلى، أحمد بن علي بن المثني أبو يعلى الموصلي - -

يكاد التاريخ يَعْرِفُ قوماً ابتُلُوا وَفُتِنُوا فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ أَشَدَّ الْفِتْنَةِ مِثْلَ مَا عُرِفَ عَنْ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ عُدِّبُوا عَذَابًا تَنَوَّاهُ بِهِ الْجِبَالُ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ، لَا سِوَا الْعَبِيدِ وَالضُّعْفَاءِ مِنْهُمْ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلِغُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَذَابِ مَا يُعَذَّرُونَ بِهِ فِي تَرْكِ دِينِهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ وَيُجِيعُونَهُ وَيُعْطِشُونَهُ حَتَّى مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ حَتَّى يُعْطِئَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّى يَقُولُوا لَهُ: اللَّائِثُ وَالْعَزْرَى إِلَهَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ؛ افْتَدَاءً مِنْهُمْ؛ مِمَّا يَبْلِغُونَ مِنْ جَهْدِهِ (١).

حتى إنهم في بعض لحظات الضعف البشري كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم شاكين ما يجدونه من شدة التعذيب وضراوته، فيعظّمهم ويُذكّرهم، ويضرب لهم الأمثال فيعودون راضين مطمئنين صابرين على البلاء (٢).

==

التميمي في مسنده، تحقيق حسين سليم أسد/٦/١٤٥، رقم (٣٤٢٣)، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث - دمشق ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م، والإمام أحمد بن حنبل، في مسنده، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ١٩/٢٤٥، رقم (١٢٢١٢)، الطبعة: الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، وأبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي في المصنف في الأحاديث والآثار ٧/٣٣٢، برقم (٣٦٥٦٦)، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد - الرياض ١٤٠٩ هـ.

(١) السيرة النبوية، محمد أبو شهبه ١/٣٣٩ - ٣٤١، الطبعة الثانية، دار القلم دمشق ١٤١٢ هـ.

(٢) كما روي في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

أما عن سياقها في ترتيب المصحف فقد جاءت بعد سورة الانشقاق؛ للتحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغترارا بإحسان الخالق وكرمه، ونسيانا ليوم الدين الذي يُحاسبُ فيه على القليل والكثير، والنقيير والفتيل والقطمير، ولا يُغني فيه مولى عن مولى شيئا؛ للدلالة على أن الأولياء يُنعمون، وأن الأعداء يُعذبون^(١)، وأنه لا بد من دينونة العباد يوم التناد، بإسكان الأولياء أهل الرشاد دار النعيم، وإسكان الأشقياء أهل الضلال والعناد غار الجحيم^(٢)، بقصد وعيد المشركين، وتبشير المؤمنين^(٣)، ﴿يَتَأْتِيهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ...﴾ الانشقاق: ٦، فلما ختم تلك (الانشقاق) بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء به، بعد أن ذكّر أنه سبحانه أعلم بما يُضمرُ الأعداء من المكر والخداع وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى، كالضرب، والقتل، والصلب، والحرق بالشمس، وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتتوه عليه، وما يرومون من الأنكاد للأولياء، وتوعدهم بما لا يطيقون، وكانوا قد عذبوا المؤمنين بأنواع العذاب، واجتهدوا في فتنة من قدروا عليه منهم، وبالغوا في التضيق عليهم، حتى ألجؤوهم إلى شعب أبي طالب وغيره من البروج في البلاد، ومفارقة الأهل والأولاد، ذكر أن هذه الشنونة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين عرّضوا على النار كان لهم من الثبات ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم، فابتدأ هذه بما أوقع بأهل الجبروت ممن تقدمهم على وجه مُعلمٍ أن ذلك الإيقاع

(١) ينظر: نظم الدرر ٨/٣٥٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/١٩٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٨/٣٧٦.

منه سبحانه قطعاً، ومُعَلِّمٍ أَنْ الماضين تجاوزوا ما فعل هؤلاء إلى القذف في النار، وأن أهل الإيمان ثَبَّتُوا؛ وذلك لتسليّة المؤمنين وتثبيتهم، وتوعيد الكافرين وتوهمينهم وتفنييتهم، فقال مقسماً - لأجل إنكارهم وفعلهم في التمادي في عداوة حزب الله فعل المنكر أن الله ينتقم لهم - بما يدل على تمام القدرة على القيامة: (والسما) أي: العالية غاية العلو المحكمة غاية الإحكام (ذات البروج)... (١).

وذكر غيره أنه لما ذكر تطاير الصحف، ومآل الفريقين في الانشقاق ذكر هنا عملاً من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود (٢)

أما سياقها النزولي فهي مكية باتفاق، وترتيبها السابعة والعشرون بعد سورة الشمس (٣) التي جاءت للدلالة على تحقيق فلاح المؤمنين وخيبة المشركين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ الشمس: ٩، ١٠، وتهديدهم بأنه يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسولهم

(١) ينظر: نظم الدرر ٣٧٦/٨، وتفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض شارك في التحقيق د زكريا عبد المجيد النوقي، د/أحمد النجولي الجمل ٤٤٢/٨، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية لبنان - بيروت ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

(٢) ينظر: تنمة أضواء البيان، عطية محمد سالم ٧٤/٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧ هـ.

(٣) ينظر: التحرير والتوثيق ٣٠/٣٢٢، ٢١١، وتاريخ نزول القرآن، أ.د. محمد رأفت سعيد ٢١٣، رقم الإيداع ١٤١٥٢/١، ٢٠٠١، من دون.

الذي دعاهم إلى التوحيد^(١)، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ الشمس: ١٤، وفي هذا عظةٌ للمشركين، وتثبيتٌ للمؤمنين^(٢).

أما سياق القصة النبوية فهو تصبيرُ المؤمنين - أيضا - على أذى المشركين، وتسليتهم، وتثبيتهم على العقيدة، وتبشيرهم بالنصر والتمكين في سياق الشدة والابتلاء، بعد أن شكوا ما يلقونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يشهد لذلك حديثُ خَبَّابِ بنِ الأَرْتِ رضي الله عنه^(٣)، كما يشهد له ما أخرجه الترمذي عن صهيب من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحَدِّثُ بهذا الحديث مع حديثٍ آخر^(٤)، فالسياقُ واحدٌ، غير أنه في القصة القرآنية؛ لتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتسليتهم وتصبيرهم، أما في القصة النبوية فالنبي صلى الله عليه وسلم هو من يُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُصَبِّرُهُمْ وَيُسَلِّطُهُمْ عَمَّا يَلْقَوْنَهُ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٢، ٢١١.

(٢) ينظر: التفسير المنير، وهبة الرحيلي ١٥/٥٢٦، ٥٢٧، الطبعة العاشرة، دار الفكر، دمشق ١٤٣٠ هـ.

(٣) سبق ذكره في الحديث عن مقصد القصة.

(٤) سبق ذكره أيضا في الحديث عن مقصد القصة.



المبحث الثاني: البنية في الوحيين بين التشابه والاختلاف.

المطلب الأول: المفردة:

قبل الخوض في الحديث عن مفردات القصة في الوحيين يجدر التنبيه إلى أن المقصود بالمفردة التي سيتم التركيز عليها ما له دور واضح في كشف بعض ملابسات القصة أو سمات شخصياتها أو أحداثها، وليس كل مفردات القصة، وإلا طال بنا الحديث، فضلا عن أن هذا له مجال آخر، ودراسة أخرى هي الدراسة التحليلية للقصة.

وعليه فإن المتأمل في مفردات القصة يقع على العجب العجيب، وبيان ذلك كما يلي:

١- المفردة أو الحقل الدلالي أو الوحدة السيميائية المعبرة عن الحدث.

جاءت المفردة المعبرة عن الحدث في الوحيين مبهمة يكتنفها الخفاء؛ إبلاغا في بشاعته وشناعته وشدته وقساوته، وأنه مما لا يحسن إظهاره؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب، فضلا عن نفور الأذواق والفطر السليمة منه، حيث جاءت في البيان القرآني بالفعل المبني للمفعول (قُتِلَ) إشارة إلى بشاعة هذا القتل وفضاعته وقسوته، بحيث لا يكشفه لفظ، ولا يفصح عن ماهيته كلام، وإن أشار إلى شيء منه البديل: (النار ذات الوقود)، فضلا عن أصل المادة الدال على إزالة الروح عن الجسد^(١)، هذا

(١) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني ٦٥٣، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق ١٤١٢هـ.

بناء على أن الجملة خبرية وأن المراد بأصحاب الأخدود المؤمنون المقتولون المعذبون فيه.

أما إن كانت الجملة دعائيةً وكان المقصود بأصحاب الأخدود القتلة الذين حفرُوا الأخدود، وأحرقوا المؤمنين فيه، فإن اصطفاء صيغة المبني للمجهول فيه؛ للدلالة على عموم الدعاء عليهم بالقتل واللعن من كل لاعن، أي: لعنوا بأيسر أمر وأسهله من كل لاعن، لعنا لا فلاح معه^(١).

وكذلك في البيان النبوي، فقد جاءت عامة مبهمة من دون تحديد ولا تفصيل ولا توضيح، عَبَّرَتْ عنها لفظ (ففعَلُوا) المفسر بما سبقه (فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّكِ، فَخَدَّتْ وَأَصْرَمَ النَّيْرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا) غير أن الفاعل والمفعول به في البيان النبوي محددان، الفاعل يتمثل في الملك الأمر بحد الأخدود وإلقاء من ثبت على الإيمان فيه، والمفعول به هم الثابتون على إيمانهم المستمسكون بعقيدتهم.

غير أن البيان النبوي وردت فيه لفظةٌ تدل على شدة التعذيب بالعرض على النيران هي فعل الأمر (فأحموه) في قول الملك: (مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا)، التي توحى بقتلهم واختبارهم بعرضهم على النار وإحراقهم وإيمانهم حتى يسخنوا فيها ليرجعوا عن إيمانهم، يقال: أَحْمَيْتُ

(١) ينظر: نظم الدرر ٨/٣٧٨.



الْحَدِيدَةَ فَأَنَا أَحْمِيهَا إِحْمَاءَ حَتَّى حَمَيْتُ تَحْمَى، وَأَحْمَيْتُ الْمِسْمَارَ إِحْمَاءً فَأَنَا أَحْمِيهِ، وَأَحْمَى الْحَدِيدَةَ وَغَيْرَهَا فِي النَّارِ: أَسَخَّنَهَا^(١).

يقابل ذلك في البيان القرآني (إذ هم عليها قعود) على احتمال أن يكون المراد بـ(أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ) المؤمنين المعذبين فيه، وأن يكون الضمير (هم) عائداً على المقتولين الثابتين على إيمانهم، وعليه فالقعود حقيقة و"على" للاستعلاء الحقيقي، أي: قاعدون على النار، بأن كانوا يُحَرِّقُونَهُمْ مربوطين بهيئة القعود؛ لأن ذلك أشدُّ تعذيباً وتمثيلاً، أي: بعد أن يقعدوهم في الأخاديد يوقدون النار فيها، وذلك أروعُ وأطولُ تعذيباً^(٢).

٢- المفردة أو الحقل الدلالي أو الوحدة السيميائية الدالة على التعريف بشخص القصة.

جاء التعبير عنهم في البيان القرآني بلفظ(أصحاب)؛ للإيذان بما حدث من الصلة بينهم، وهي صلة المماثلة في الثبات على الحق، والمماثلة في الضراء؛ فإن المماثلة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها^(٣)، وإضافتهم إلى الأخدود(أصحاب الأخدود) ليظل هذا الوصف ملازماً لهم لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه، وكأنه ضربةٌ لازب لا يحدد أحدهما عن الآخر تخليداً لذكرهم، وإظهاراً لعظمة تضحياتهم في سبيل العقيدة، ولهذا لم يُزَدَفْ بصفات تكميلية تعرّف بهم؛ للدلالة على أنهم أظهارُ

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور (ح م ا) الطبعة الثالثة، دار صادر بيروت ١٤١٤هـ.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢١٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢١٥.

أنقياء، لا تشوب قلوبهم شائبة لؤم، ولم يسبق لهم أي سابقة عصيان، وأن ذنبهم الوحيد من وجهة نظر قاتليهم أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، فضلا عما في ذلك من الدلالة على أن محور الصراع ومبعثه هو الإيمان والكفر، هذا إذا كانت الجملة خبرية، وكان المراد بهم المؤمنين الثابتين على عقيدتهم.

أما إن كانت الجملة دعائية فيكون المقصود ب(أصحاب الأُخدود) الطغاة المجرمين القتلة، ويكون التعبير عنهم بذلك ليظل وصمة عارٍ لهم تلازمهم على مرِّ العصور؛ تقيحا وتبشيعا لسوء فعلتهم التي تنبئ عن كفرهم وعتوهم وبعدهم عن الحق وقسوة قلوبهم، وإيذانا بما بينهم وبين القسوة والإجرام والشر من علاقة، وأنه عبر عنهم بذلك تنزيها وصيانة للسان من جريانهم عليه، وهذا ما جرى عليه النسق هنا واطرد عليه التعبير، بدءا من بناء الفعل للمجهول، وانتهاءً بالإضمار في كل مواضع التعبير عنهم (إذ هم عليها قعود)، و(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود)، و(وما نقموا...) مع التركيز فقط على ما يشهد ببشاعة فعلتهم، وهذا ما يتلاقى وسياق القصة القرآنية الدقيق، سياق المجازاة، وطلاقة القدرة.

أما السياق الدقيق للقصة في البيان النبوي فهو في بيان معاناة المؤمنين وثباتهم على مرِّ العصور، ولهذا عرّف الفريقين، وحدد أوصافهم بدقة ووضوح، مع عدم النصِّ على أسمائهم وهم:

أ) الطغاة العتاة المجرمون:

الملك (كَانَ مَلِكًا فَيَمُنُّ كَانَ قَبْلَكُمْ) الذي عَدَّبَ الجليس بعد إيمانه (فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ)، والغلام حتى دل على الراهب (فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ)، والذي قتل الراهب والجليس

(فَجِئَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ) وَالْأَمْرَ بِالْحَفْرِ وَالْحَرْقِ (فَأَمَرَ بِالْأَخْذُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّكِ، فَحَدَّتْ وَأَضْرَمَ النَّيِّرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا...) تَكَ الْلَفْظَةُ الَّتِي تُشِي بِالسُّطُورَةِ وَالسِّيْطِرَةِ مِنْ دُونَ حَدِّ أَوْ قَيْدٍ.

الساحر (وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السِّحْرَ) الَّذِي كَانَ يَزِيْنُ لَهُ الْبَاطِلَ وَيَقْلِبُ الْحَقَائِقَ، وَيَعِينُهُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْبَطْشِ وَالْقَهْرِ، هُوَءَاءُ هُمْ نَوَاةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَأَدْوَاتِهِ، وَهَذَا التَّحْدِيدُ الدَّقِيقُ لَهُمْ، وَلِدَوْرٍ كَلِّ مِنْهُمْ يَتَلَقَى مَعَ حَالِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يِعَانُونَ الْأَذَى، وَيَتَحْمَلُونَ الْمَشَاقَّ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ، بِمَا فِيهِ مِنْ بَيَانٍ أَنَّ الطَّغَاةَ السَّابِقِينَ فَعَلُوا فِي أَسْلَافِهِمْ مَا قَدْ يَزِيدُ عَمَّا يَفْعَلُ الْوَالِدُونَ بِهِمْ، وَأَنَّ هَذَا دَابُّ الْكُفْرِ فِي كُلِّ بَيْئَةٍ وَعَصْرٍ، وَأَنَّهُمْ غَالِبًا يَكُونُونَ مِنَ الْمُقْتَدِرِينَ الْمُتَحَكِّمِينَ، الَّذِينَ يَرِيدُونَ السِّيْطِرَةَ عَلَى النَّاسِ، وَإِخْضَاعَهُمْ لِسُطُورَتِهِمْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ.

وَالْقِصَّةُ مِنْ بَدَايَتِهَا تَتَكَيُّ مِنْ خِلَالِ هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ، عَلَى مُؤَشِّرِينَ يُمَثِّلَانِ نَوَاةَ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، هُمَا: الصِّرَاعُ عَلَى السِّيَادَةِ، وَالْجَهْلُ (بِقَلْبِ الْحَقَائِقِ وَالْخِرَافَاتِ وَالتَّرَهَاتِ)، وَكَأَنَّهَا تُشِي مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ بِالظُّلْمِ وَالْعَنْتِ وَالطَّيْشِ، وَالْإِجْبَارِ وَالشَّعْوَذَةَ وَالْبَطْشَ، وَالْقَهْرَ وَالْمَرَاوِغَةَ وَالْجَهْلَ.

جند الَّذِينَ نَقَدَّ بِهِمْ كُلَّ جَرَائِمِهِمْ، وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِ (أَصْحَابِهِ) لِيشير إلى مَمَالَاتِهِمْ لَهُ، وَمُوَافَقَتِهِ عَلَى جَرَائِمِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهَمْ لَيْسُوا مَجْرَدُ جُنْدٍ يَنْفَعُونَ

الأوامر فحسب، بل هم أصحابه المشتركون معه في الرأي والتخطيط والتنفيذ (فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذْهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ)، وفي المرة الثانية: (فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمَلُوهُ فِي فُرْقُورٍ، وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذْهَبُوا...)، والذين حفروا الأخدود، وأضرموا فيه النيران، وأحموا فيه من ثبت على عقيدته، أو قالوا له: اقتحم (فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكِ فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ فِيهَا النَّيْرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجَعْ عَنْ دِينِهِ فَاقْحَمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا).

المعرضون المنافقون من البطانة السيئة الذين كان لهم الدور

الأكبر في هذه المحرقة؛ إذ بناءً على كلامهم تَمَّتْ المحرقة (فَأْتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكِ...).

ب) المؤمنون الثابتون على عقيدتهم:

الغلام نقيُّ السريرة سليمُ الفطرة الذي أعجبه الخير فاستحسن كلام الراهب، مع ما في طاعة الساحر من مغريات الحكم والسيادة (وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ)، الثابتُ على الحق، الذي تحمل في سبيله الأذى بالضرب من الساحر (فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ صَرَبَهُ)، الذي ثَبَّتَهُ اللهُ على هذا الحق بكراماته (فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَفَقَلَّتْهَا وَمَضَى النَّاسُ)، (وَكَانَ الْغُلَامُ

يبرئ الأكمة والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء)، الذي لم تؤثر فيه مغريات الدنيا وزخارفها، ويظهر ذلك في رده على جليس الملك - لما جاءه بهدايا كثيرة وقال له: (ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني) - قائلا: (إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى)، وهي العبارة نفسها التي ردَّ بها على الملك لما حاول في مكرٍ وخبثٍ ودهاءٍ زعزعةً يقينه وقتل دعوته وردَّه عنها بالتلطف معه ونسبة أعماله إلى الذي تلقاه عن الساحر: (فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُيِّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تَبْرئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ؟) إذ قال الغلام له: (إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى)، الصابر على التعذيب البدني الذي تعرَّض له (فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَعْذِبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ)، ثم على التعذيب النفسي بقتل الجليس والراهب اللذين ثبتا على الدين بشقهما بالمنشار أمام عينيه.

قوي الإيمان، راسخ العقيدة، الواثق بربه، المفوض الأمر إليه، حسن التوكل عليه، يشهد لهذا ثباته لما أرسله الملك مع أصحابه ليقتلوه طرحا من فوق الجبل، أو إغراقا في البحر؛ إذ لم يجزع، ولم يهتز، بل قال في الحادثتين: (اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ)، وحتى لما سأله الملك بعد عودته: ما فعل أصحابك؟ قال في المرّتين: (كفانيهم الله تعالى)، وفي النهاية هو المضجّي بروحه في سبيل العقيدة، الدالُّ على موته ليحيا الإيمان في قلوب الناس، حتى كانت النتيجة إيمانَ الناس قائلين: (أَمَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ).

الراهب الذي سخره الله للغلام في طريق الساحر فوقعت موعظته في قلب الغلام موقعها، والذي كان يتخذه شيخا له، ومرجعا يعود إليه شاكيا في الضر، ومبشرا في الخير، المقرُّ بالفضل لأهله؛ إذ قال للغلام: (أَيُّ بُيِّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى) الناصح الأمين الذي يُعِدُّ

الغلام لما قد يواجهه: (وَإِنَّكَ سَتُنَبِّئُنَا)، الثابتُ على الحق المضحى بروحه في سبيل العقيدة (فَجِئْ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ).

جلس الملك الذي كان عماه سببا في هدايته؛ إذ ذهب إلى الغلام طالبا الشفاء، آخذا الكثير من الهدايا، فدعاه الغلام إلى التوحيد، فهداه الله وشفاه، فواجه الملك قائلا: (رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ)، فتعرَّضَ للتعذيب (فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ)، ثم ثبت على العقيدة مضحيا بروحه (ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ).

المضطهدون المؤمنون من عامة الناس، وهؤلاء كان الحديث عنهم شديداً الإيجاز؛ لأن حالهم معلوم للمخاطبين بالقصة، فهم فيه مثلهم، ومن ثم لا يحتاج إلى مزيد تفصيل وتوضيح، عبَّر عنهم باللفظ الجامع الشامل (الناس) في قوله: (فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ) الذي يشي بالكثره وأنهم الأعمُّ الأغلبُ من الشعب، مكتفياً بما يدل على تنفيذ الجنود أمر الملك بإلقائهم في الأخدود المضرم فيه النيران، أو أمرهم باقتحامه (ففعّلوا).

المرأة والصبي الأنموذج الخاص الذي كان له موقف مختلف عن بقية الناس (حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَثَبَّتْهَا اللَّهُ بِأَنْ أَنْطَقَ الصَّبِي (يَا أُمَّهُ، اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ)).

وهذا الإطناب في البيان النبوي في الحديث عن المفتونين المضطهدين يتلاقى مع حال المفتونين الذين يعذبون ويؤذون في سبيل عقيدتهم؛ تصبيرا وتثبيتا لهم، وأنهم ليسوا بدعا ممن كان قبلهم، بل وأنهم



ليسوا من يعانون وحدهم، بل الدعاة كذلك، وهذا في نظري ما دعا إلى التركيز على معاناة الدعاة (الراهب والغلام) في القصة الذي يتلاقى مع حال الداعية الأعظم صلى الله عليه وسلم وما يعانیه من أذى؛ لبيان أنه ليس الأتباع فقط هم من يتعرضون للمعاناة والأذى، بل الدعاة أيضا مثلهم إن لم يكونوا يعانون أكثر منهم، فكأنه صلى الله عليه وسلم من خلال هذا العرض يقول- للمؤمنين الذين يؤذون في عقيدتهم، ويعانون المصاعب في كل أرض وعصر، ولمن جاءه يشكو حاله من أصحابه، ويطلب نُصرة الله "ألا تستنصر لنا"-: إن الدعاة إلى الله أيضا يواجهون صنوفَ الابتلاء في كل زمان، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وإن حالي كحالكم...، وفي ذلك ما فيه من تسليتهم وتثيبتهم وتصبيرهم، ولم يكن ذلك ليناسب سياق القوة والعظمة والعلم والبطش الذي وردت فيه القصة القرآنية، وسياق المجازاة على الأعمال الممتد في السورة وسوابقها ولواحقها ترتيبا ونزولا.

٣- المفردة أو الحقل الدلالي أو الوحدة السيميائية الدالة على مكان التعذيب في القصة.

(الأخدود): قال ابن فارس: "الْحَاءُ وَالذَّالُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ: تَأْسَلُ الشَّيْءِ وَأَمْتِدَادُهُ إِلَى السُّئْلِ... (١)"، وَالْحَدُّ: شَقٌّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَطِيلٌ غَائِصٌ (٢)، وهو ما يزيد بشاعة الحادث وقسوته عن طريق الدلالة على العجز عن الهروب والنجاة منه بعد الوقوع فيه؛ لأنه تحت الأرض، وقد زاده

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (خ د د) دار الفكر، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

(٢) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني ٢٧٦، لسان العرب، ابن منظور (خدد)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، بدون.

البيان النبوي خفاءً وإبهاماً من خلال البناء للمجهول (فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكَ فَخُدَّتْ)، الذي يشي بالتركيز على الأخدود والحدّ نفسه دون النظر إلى فاعله؛ لما له من دورٍ في عملية التحريق، وعدم الفكاك منها.

٤- المفردة أو الحقل الدلالي أو الوحدة السيميائية الدالة على التعريف بأداة التعذيب في القصة (النار).

وقد تشابه البيانان في التعبير عنها؛ إذ جاء في كليهما (النار) غير أنها جاءت بصيغة المفرد في البيان القرآني (النار) الذي أُتبع بالبدل (ذات الوقود) الدال على الشدة والقوة، بينما جاء في البيان النبوي بصيغة الجمع (النيران) الدالة على التكثر؛ ليؤخذ من مجموعهما (البيانين) الشدة والقسوة والقوة.

٥- المفردة أو الحقل الدلالي أو الوحدة السيميائية الدالة على الاشتعال في القصة.

عبر عنها البيان القرآني بـ "الوقود" في قوله: "النار ذات الوقود" الدال على فعل النار، قال ابن فارس: "الْوَأْوُ وَالْقَافُ وَالذَّالُّ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ...، وَالْوُقُودُ: الْحَطَبُ. وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ إِذَا وَقَدَتْ (١)"، ووقود النار: توقدها، وما تراه من لهبها (٢)، أما البيان النبوي فقد جاء التعبير فيه بلفظ (أضرم) في قوله: (وَأَضْرَمَ فِيهَا النَّارَ) الدال على شدة الحرارة والاشتعال، قال ابن فارس: "الضَّادُ وَالرَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَرَارَةٍ وَالنَّهَابِ، مِنْ ذَلِكَ الضَّرَامُ مِنَ الْحَطَبِ: الَّذِي يَلْتَهَبُ بِسُرْعَةٍ، ..."

(١) مقاييس اللغة (و ق د).

(٢) ينظر: لسان العرب (و ق د).



وَيَقَالُ: ضَرِمَ الشَّيْءُ: اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَمِنَ الْبَابِ فَرَسَ صَرِمًا: شَدِيدُ الْعَدْوِ، وَالضَّرِيمُ وَالضَّرَامُ: اشْتَعَلَ النَّارَ (١)، وَأَضْرَمَ النَّارَ: أَوْقَدَهَا (٢).

وفي كليهما دلالة على شدة الاشتعال، غير أن وصف البيان القرآني أكثر قوة؛ لأنه جعل الاشتعال ذاتيًّا للنار، فهي "النار" الموصوفة بأنها (ذات الوقود)، الذي يفيد المبالغة بطريق التجريد، وكأنه انتزع منها نارا أخرى ذات وقود مثلها (٣)، ما يشهد بارتفاع لهبها وعظمتها (٤)، وهو ما يتلاقى معه التعبير عن فعلهم بالفئتن (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات...) الذي يدل على معاني الاختبار والتعذيب والشدة (٥)، ذكر ابن فارس أن "الفاء والتاء والنون أصل واحد صحيح يدل على الابتلاء والاختبار، تقول: فتنت الذهب: إذا أدخلته في النار لتتظر ما جودته... (٦).

٦- المفردة أو الحقل الدلالي مزدوج الدلالة في القصة (شاهد)

كلمة (شاهد) مع حرف الجر (على) ولفظ العموم (كل) أدوات تفيض بالتهديد الشديد وتجهر بالوعيد المفزع الذي يخلع القلب للطغاة القائلين المجرمين، وفي الوقت ذاته تهتف بالملاطفة والرقعة، وتُبشِّرُ بالوعد المطمع الذي تجد وراءه فيضا من الرحمة والحب والأمان للمخلصين لربهم الثابتين على إيمانهم، "وهكذا تتشابه المعاني، وتعطيك الجملة الواحدة إيل

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب (ض ر م).

(٢) لسان العرب (ض ر م).

(٣) ينظر: حاشية الشهاب ٤٥٨/٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ.

(٤) ينظر: الكشف ٧٣٢/٤، تفسير أبي السعود ١٣٦/٩.

(٥) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٦٢، ٣٦٣، دار إحياء الكتب العربية، بدون.

(٦) ينظر: مقاييس اللغة (ف ت ن).

الكلمة الواحدة] ضرورياً متنوعة تشهد أن معدنها ليس هو النفس التي لا تجتمع عليها الأحوال^(١)."

المطلب الثاني: بنية معاهد الجمل:

بنية معاهد الجمل في البيان العربي بشكل عام وفي البيان القرآني خاصة لها نمط تركيبى خاص حسب معانيها المؤممة ومساقاتها وملابساتها، فليست الجملة مجرد مسند إليه ومسند، وليس الكلام مجرد جملة بعدها جملة وهكذا حتى ينتهي، بل لا بد من اتصال لغوي بين طرفي الجملة، وبين الجمل بعضها وبعض، ولا بد من ترابط بين الألفاظ والمعاني يُحكم اتصالها حتى تبدو جسداً واحداً متناسقاً متكاملًا غير مشوّه شكلاً ولا مضموناً، والناظر في قصة أصحاب الأخدود يجد أنها مترابطة متناسقة، وأن هذا الربط على نوعين:

أ) الربط المعنوي:

المتأمل في بنية معاهد الجمل التي كوّنت قصة أصحاب الأخدود ومعانيها التي عبّرت عنها في البيان القرآني يدهشه - على إيجازها - ترابطها المعنوي المحكم، واتساقها العجيب، وتسلسلها، وتناسل جملها في ترابط متين، وتماسك شديد؛ حيث بُنيت معاهد الجمل في القصة على جملة هي أسُّ المعنى ونواته وبذرتة، توالدت ونُسِلت منها كل معانيها، هي جملة: "قتل أصحاب الأخدود" التي تنبئ عن أليم ما لحقهم من معاناة وتعذيب وتتكيل، مبيّنةً مكان هذا التتكيل (الأخدود)، مشيرة إلى ملازمتهم له حتى آخر نفس

(١) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، أ د/ محمد أبو موسى ٥٠، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م، مكتبة وهبة القاهرة.

في حياتهم من خلال التعبير بـ (أصحاب)، مترقيّةً إلى بيان أداة القتل والتكيل عن طريق البدل من الأخدود (النار ذات الوقود)، النار الشديدة المستعرة التي لا يخمد لهبها، ثم تنتقل إلى بيان هيئتهم حال تحريقهم مربوطين على هيئة القعود، وذلك أشد إيلاماً، وأطول تعذيباً وأقوي تنكيّةً بهم (إذ هم عليها قعود) زيادة في التكيل والتمثيل بهم^(١)، وهذا ما يشي بقسوة قلوب القاتلين، وجفوة طباعهم، وبشاعة وشناعة فعلتهم، الذي عبّر عنه بوضوح قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ التي تشهد بحضورهم المحرقة، ومتابعتهم ومراقبتهم إلقاء المؤمنين فيها، من دون أن يرقّ لهم قلبٌ أو يرفّ لهم جفن، يستمتعون بالمحرقة، ويشهد بعضهم لبعض عن قادتهم أن أحدا منهم لم يُقَصِّر في تنفيذ ما وُكِّل إليه، فضلا عما فيه من إحياء بشهادة بعضهم على بعض عند ملك الملوك يوم الجزاء الأوفى، توطئة للحديث عن مصيرهم بعدُ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ...﴾.

ثم يذكر سبب هذا الانتقام من هؤلاء المؤمنين بهذه الطريقة البشعة، حتى لا تدع في نفس المتلقي مجالا لسؤالٍ عن سبب كل هذه البشاعة وتلك القسوة، فتبيّن أن ذلك كلّهُ لا لذنّب اقترفوه، ولا لجرم فعلوه، إنه لا لشيء

(١) هذا بناء على أن المراد بـ (أصحاب الأخدود) المقتولون فيه، أما إن كان المقصود بهم الطغاة القاتلين فهي تخبر عن شنيع جرمهم، داعية عليهم بنيل أشد العذاب جزاء فعلتهم، مبيّنة في الوقت ذاته ما فعلوه لتعذيب إخوانهم الذين ثبتوا على عقيدتهم؛ إذ حفروا لهم الأخدود، وأشعلوا فيه النيران الشديدة، وجلسوا بكل قسوة وإجرام حولها وعلى أطرافها يتابعون عن قرب عملية إلقاءهم فيها وتعذيبهم وتحريق أجسادهم.

سوى الإيمان بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، هذا فحسب سبب النعمة عليهم، هذا سبب تعذيبهم وتحريقهم والتنكيل بهم.

ثم تختتم القصة بما وطأ له قوله قبل: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فتبين مآلهم بأن لهم - إن هم استمروا على إجرامهم، وأصروا على ضلالهم - عذاب جهنم والتحريق بنار الله في الآخرة جزاءً وفاقا، ثم تكمل المعنى ببيان جزاء الصابرين الثابتين على عقيدتهم بأن لهم - مقابل صبرهم على نار الأخدود في الدنيا (جنات) كثيرة عظيمة ينعمون في برادها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إنه - حقاً - الفوز العظيم الذي لا يدانيه فوز.

أما القصة في البيان النبوي فهي - كما سبق - تمثل مرحلة سابقة على ما ورد ذكره في البيان القرآني، غير أنها جاءت - أيضا - متسقة متسلسلة بما يتلاقى مع سياقها وهدفها، فنبئت كل أحداثها من قوله صلى الله عليه وسلم في مفتحتها: (كان ملك... وكان له ساحر..) الذي يشي من أول الأمر أن الأمور في هذه المملكة قائمة على التزييف وقلب الحقائق والخرافات والتزوهات، وأن أهل الباطل حريصون على استمرار باطلهم، ولهذا طلب الساحر - لما كبرت - سنه من الملك غلاما يعلمه السحر؛ حتى تستمر السيطرة على مقاليد الأمور، غير أن الفطرة السليمة عند الغلام تأتت ذلك، ونفرت منه على ما فيه من مغريات الغنى والسيادة، ومن ثم استحسن كلام الراهب، وتحمل الأذى بالضرب في سبيل ذلك حتى شكا إلى الراهب فدلّه



على المخرج، غير أنه ظل في صراع داخلي وحيرة شديدة؛ لتناقض ما يتلقاه عن الراهب مع ما يتلقاه عن الساحر، فتأتي حادثة الدابة التي حبست الناس لتحسم له الأمر، وتفصل بين الحق والباطل، كاشفة الحقيقة جلية واضحة، فيعود إلى الراهب الذي يُعده لما سيواجهه في سبيل هذه الدعوة، ويجهزه للقيام بأعبائها.

ثم تتوالى كرامات الغلام، فيبرئ الأكمه والأبرص ويداوي جميع الأمراض، ثم تتطور الأحداث بانتشار خبره بين الناس، حتى سمع بذلك جليس الملك وكان أعمى، فيذهب إلى الغلام طالبا الشفاء، محملا بالهدايا، فيكون أول من يدعوه الغلام إلى الله، مبينا أنه تعالى هو الشافي، فيؤمن الجليس، ويعود إليه بصره، وهنا تتأزم الأحداث وتبدأ المعاناة حين يخبر الملك أن ربه الذي شفاه، فيخاطبه الملك منكرا: ولك رب غيري؟؟؟ فيجيبه الجليس بثبات ويقين: ربي وربك الله، فيعذبه حتى يذل على الغلام، فيؤتى به، فيحاول الملك بمكره كسبه إلى صفة ناسبا أفعاله إلى السحر الذي اكتسبه من الساحر، فيتبث الغلام على عقيدته ناسبا الشفاء إلى الله تعالى وحده، فيلجأ الملك إلى تعذيبه حتى يذل على الراهب، فيؤتى به، فيساومه الملك على دينه، فيتبث فيشقه بالمنشار.

وهكذا يفعل مع الجليس، أما الغلام فيرسله مع نفر من جنده إلى أعلى جبل ليقذفوه، فيلجأ إلى ربه فيهلكهم وينجي الغلام الذي يعود ماشيا إلى الملك قائلا له لما سأله عنهم: كفانيهم الله، فيرسله مع نفر غيرهم إلى البحر ليغرقوه في وسطه، فيحدث لهم ما حدث لمن سبقوهم ويعود ماشيا إلى الملك قائلا له ما قال في المرة الأولى، ثم يذكر للملك أنه لن يستطيع قتله إلا إن

فعل ما يقول له، مضمّنًا ذلك ما يكون سببا في إيمان عامة الناس، ويتحقق ذلك على أتم الوجوه.

ثم ينتقل إلى بيان دور البطانة الفاسدة والمنافقين المنتفعين الذين يحرضون الملك على القتل والانتقام، وهنا تصل القصة إلى الجزء المقابل لما ورد في البيان القرآني، ذلك الجزء الذي يرد في البيان النبوي مكونا من أمرين: جاء الأمر الأول بطريق السرد (فأمر بالأخدود في أفواه السكك)، وجوابه (فخُدَّتْ)، الثاني جاء بطريق الأمر الصريح المباشر المبني على فعل الأمر؛ لأنه أشد قسوة (فأحموه) في قوله: (من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها) وجوابه (ففعّلوا).

ثم تختم بما يشهد على قسوة قلوبهم وجفاء طباعهم (حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها) فلم يرحموا شفقتها على صبيها، فقال لها الغلام: (يا أمّه، اصبري فإنك على الحق)، وهكذا تتناسل فيها المعاني، وتتوالى الجمل في ترابط معنوي محكم، واتساق عجيب حسب سياق كل قصة ومقصودها الرئيس بما يحقق هدفها المرؤوم منها في كل واحد من البيانين.

ب) الربط اللفظي (أدوات الربط):

يلحظ متأمل القصة في البيانين أنها - مع الربط المعنوي المحكم والاتساق المعجب والتسلسل الذي اتسمت به من خلال تناسل معانيها وتوالدها من مفتحتها وحتى خاتمتها - قد اشتملت على روابط لفظية تزيّد من تماسك المعاني، وتقوّي علائقها، تمثلت تلك الروابط في البيان القرآني في:

• الرابط الدال على التوضيح والتفسير والتبيين، البديل "النار ذات الوقود" بدل من الأخدود) لبيان شدة العذاب والتمثيل بالمؤمنين الذي عبّر عنه في جملة التأسيس بالقتل (قُتِل) وأنهم يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود(هذا إذا كان المقصود بأصحاب الأخدود المقتولين فيه) أو بيان الاحتشاد والاهتمام وعدم التهاون في تسعير النار والجِدِّ في عملية التحريق (إذا كان المقصود بأصحاب الأخدود الطغاة المجرمين الملك وأعوانه أو المأمورين منه بتنفيذ هذه المحرقة) وهو رابط قوي لا يخفى أمره، ولا يُنكر دوره في عملية الربط لفظاً ومعنى؛ إذ هو عين المبدل منه.

• الرابط الدال على هيئة المعذبين، الحال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

• الرابط الدال على التشريك، الواو العاطفة في ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ...﴾، و﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ...﴾، و﴿والله على كل شيء شهيد﴾، و﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾

• الرابط الدال على الترتيبية والسببية، بيان علة قتل الثابتين على إيمانهم في ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ...﴾

- الرابط الدال على زيادة المعاني وتناميها، وتعدد صفات الله المتوالية في ﴿...الْعَزِيزِ الَّذِي الْحَمِيدِ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ...﴾.

- الضمائر (هم، عليها، يفعلون، نقموا، منهم، له)، وكل هذه الروابط تعمل على التواصل اللغوي والتعاقب والتعلق بين التراكيب لتبدو وحدة متماسكة متواشجة البناء متينة السبك.

أما قصة البيان النبوي في مجملها فقد شاع فيها الربط بحروف

العطف (الفاء، والواو، وثم)؛ حيث وردت الفاء في: (فلما كبر، فابعث إلى غلاما، فبعث، فكان في طريقه راهب، ففقد إليه، فأعجبه... إلخ)، وهكذا تكررت الفاء في القصة تسعين مرة ما بين عاطفة وسببية.

ووردت (الواو) تسع عشرة مرة، و(ثم) عشر مرات، كل ذلك للدلالة على توالي الأحداث واتصالها وتعاقبها حسب ما يطلبه المعنى وما يدل عليه الحرف من تشريك فقط أو تشريك وتلاحق أو تراخ حسب سير الأحداث في القصة.

كما تنوعت فيه الضمائر بين المتكلم والمخاطب والغائب مما لو قمنا بتفصيله والنص عليه واحدا واحدا لظال بي الحديث، ولخرج البحث عن غايته التي جاء لها ومن أجلها؛ إذ ليس من همّة الوقوف عند كل كلمة وحرف والتحليل الجزئي لمحتوياته كما سبق بيان ذلك في المقدمة.

أما الروابط اللفظية في جزء القصة المقابل لما ورد في البيان القرآني

فيتمثل في:

- بناء الجملة الأولى منه على الأمر المعنوي الوارد بطريق السرد (فأمر بالأخدود في أفواه السكك) الذي جاء جوابه (فخّدت)، ثم عطف جملة (وأضرم النيران) على جملة الجواب (فخّدت)، ثم عطف فعل القول (قال) على جملة (أضرم)؛ ليُدلَّ بذلك على تَرْتِيبِيَّة الأحداث وتسلسلها. في البداية أمر بالأخدود في أفواه السكك ومداخل الطرق، فلما تم حفرها، أضرم فيها النيران، بعد ذلك قال لجنده: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها.
- بناء مفعول القول على صيغة اسم الموصول المشوب برائحة الشرطية بما فيه من ربط محكم وتعلُّق متين (من لم يرجع...). ثم المجيء بالجواب على صيغة الأمر (فأحموه) الذي يحتاج أيضاً إلى جواب، ليكون جوابه (ففعلوا) مترتباً عليه، وهكذا انمازت القصة في الوحيين بالترابط المعنوي المحكم، مع ما حوت من الروابط اللفظية التي جعلت النص قطعة واحدة متماسكة متعاقبة متعانقة يعجز عن مثلها غير المعصومين من البشر.

المطلب الثالث: تصوير المعاني في القصة:

التصوير وسيلة فنية لإثراء الدلالة، وتحقيق القوة التعبيرية على مستوى التركيب^(١)؛ لإيضاح المعنى، إذ به يخرج المعنى متصفاً بصفة حسية يكاد السامع يلمسها بيده، أو يراها بعينه، بما يضيفه من قرائن، وما

(١) ينظر: في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، سعد أبو رضا، ١٨٣، الطبعة الأولى، منشأة المعارف ١٩٨٧م.

يحويه من علاقات لغوية جديدة توازن بين المعاني والألفاظ^(١)، وبما يلقيه على المعاني من ظلال وألوان تجعل الصورة تكاد تنطق بما حملت من إحياءات وعواطف وأخيلة، فيحصل للنفس به سرور وأريحية^(٢)، أو مبالغة في توصيل المعنى، وتأثير في المتلقي، بألوان وأشكال متنوعة، حسب المعاني المؤمّة، وهذا ما انماز به البيان القرآني، وقد جاء منه في قصة أصحاب الأخدود ما يلي:

أ) في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ﴾

حيث استُعيرَ القتلُ لأشدّ العذاب^(٣)؛ تبشيعاً لما جرى في هذه المحرقة، هذا على أن المراد بأصحاب الأخدود المؤمنين المعذبين فيه الثابتين على الإيمان، أما إن كان المراد بهم الطغاة المجرمين فيكون مستعاراً للّعن والطرد من رحمة الله تعالى.

ب) في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾

حيث أُسندت الصُّحبةُ إلى المكان (الأخدود) على سبيل المجاز العقلي؛ إبلاغاً في الدلالة على الملازمة في هذا الحادث العظيم، والمخالطة في هذه المعاناة وتلكم الفاجعة، تنزيلاً لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات؛ لأن

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية، محمد حسين علي الصغير ١٥٣، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، شبكة الفكر، دار الرشيد ١٩٨١م.

(٣) الصور البيانية، حفني محمد شرف ٢٢٢، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٥/٣٠.

الصاحب حقيقة هو ذو الصحبة الملازم غيره في حالة من سفر أو نحوه للمؤانسة والموافقة، ولهذا أطلقوا على الزوجة (صاحبة)، وعلى المسافر مع غيره (صاحب) (١)، هذا إذا كان المقصود بأصحاب الأخدود: الذين قُتلوا فيه، أما إذا كان المقصود بهم المباشرين لحفره وتسعييره، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه فيكون للمبالغة في حرصهم على تنفيذ أمر الملك، ومتابعتهم جميع مراحل التجهيز للمحرقة وارتكاب ذلك الإثم، ومزاولة تلك الجريمة من البداية حتى النهاية، ومن ثم أطلق عليهم - لملازمتهم وطول معاشتهم واستعدادهم لهذه المحرقة - أصحاب الأخدود، وهو ما يؤكد بعد قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، و(شهود) في قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وزاد البيان النبوي في هذا المعني قيذا هو (فأمر بالأخدود في أفواه السكك)؛ يصور إحكام السيطرة على المؤمنين، والتضييق عليهم، والتحكم في كل المنافذ، حتى لا يتمكن أحد من الهرب (٢) ويبين أنه أكثر من أخدود، إذ هو في أبواب الطرق وأوائلها ومدخلها.

(ج) قوله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ١٢ / ٦٤، ٣٠ / ١٤٠.

(١) ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، ٣٠٥ / ٤٥، دار ابن الجوزي الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ / ١٤٣٦ هـ)، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين ١٠ / ٦٢٠، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

كناية عن صفة الشدة والقوة، إبلاغا في شدة حرها، وقوة لهبها، وتوقدها فيه كَلَّه^(١)، فهي نار قوية شديدة متوقدة، ذات لهب لا يخبوا، واشتعال ذاتي لا ينطفئ، قال الألويسي: "ذات الوقود" وصف لها بغاية العظمة، وارتفاع اللهب، وكثرة ما يوجبه، ووجه إفادته ذلك أنه لم يقل موقدة، بل جعلت ذات وقود، أي: مالكته، وهو كناية عن زيادته زيادة مفرطة لكثرة ما يرتفع من لهبها...؛ لأنه لا يقال: ذو كذا إلا لمن كثرَ عنده كذا...^(٢)"

وهذا ما عبر عنه البيان النبوي بالمجاز العقلي بعلاقة السببية؛ إذ أُسند الفعل (أضرمَ) إلى الملك، وليس هو الفاعل الحقيقي له، ولا المؤثر فيه؛ إبلاغا في دوره بعد الأمر بخدِّ الأخدود، فهو المتسببُ فيه، الأمرُ به، أما مَنْ أضرمها حقيقة فهم الجنودُ بأمره.

(د) قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

استعارة تبعية تصوّر موقفهم ومشهدهم وهم قرييون من الأخدود المشتعل بالنار الملتهبة، يشاهدون عملية إلقاء المؤمنين والمؤمنات البشعة فيه، وفعل النار الشنيع في أجسامهم^(٣)، ويشرفون عليها من حوله ومن حافات يراقبون من قرب، متمكنون من ذلك أشد تمكن، دلَّ عليه التعبير بحرف الاستعلاء (على)^(٤) الذي يشهد بقسوة قلوبهم، وجدِّهم في باطلهم؛

(٢) ينظر: نظم الدرر ٢/٨.

(٣) ينظر: روح المعاني ٨٩/٣٠.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٢/٨.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٨/٣٧٨، وروح المعاني ٩٠/٣٠، والتحرير والتنوير ٢١٧/٣٠.



حيث حضروا تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة، طمعا في أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم^(١).

أما البيان النبوي فقد آثر الحقيقة في التعبير عن حادث الأُحدود، مع الإيجاز الشديد؛ إذ وردت حكاية الحادث فيه فيما لا يتجاوز السطرين (فَأَمَرَ بِالْأُحْدُودِ فِي أَقْوَاهِ السِّكِّكِ، فَحَدَّتْ وَأَصْرَمَ النَّيْرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَنَحِمْ، فَفَعَلُوا) اكتفاءً بما ورد في البيان القرآني.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ١٠٩/٣١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

المبحث الثالث: الحذف والذكر في قصة الوحيين بين التشابه والاختلاف

من يتأمل القصة في البيانيين يلحظ أن ثمة اختلافاً بينهما من حيث ما ذُكر مما تمّ التركيز عليه وإظهاره وما حُذف مما يمكن الاكتفاء بغيره عنه؛ حسب المقاصد المؤممة في كلّ، وبيان ذلك كما يلي:

١- المطلع في الوحيين بين التشابه والاختلاف:

افتتحت القصة القرآنية بالقسم بالسماء ذات البروج العالية؛ للدلالة على قدرته تعالى وقوته، وسعة علمه، وبالיום الموعود؛ للدلالة على تحقيق ما سيكون فيه من الحساب والمجازاة على أفعال العباد؛ إيماء إلى وعيد أصحاب القصة المُقسّم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرّض بهم، وبكل شاهدٍ ومشهودٍ؛ للدلالة على أنه لا يغيب عنه سبحانه شيء، وأنّ كلّ الأعمال مدونة على المرء، وأنه لا مجال للفكاك، وأنّ أصحاب هذه القصة خصوصاً شهودٌ عند الملك (١) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ البروج: ٧.

فالله سبحانه له القدرة الكاملة على معاقبة الكافرين على أعمالهم الشنيعة وما ألحقه بالمؤمنين من فتنة وعذاب، وعلى إثابة المؤمنين بالعزیز الحميد في ذلك اليوم الموعود الذي تشهدده جميع الخلائق، ويشهد فيه بعضهم على بعض (٢).

(١) ينظر: نظم الدرر ٣٧٧/٨، والتحرير والتتوير ٢١٤/٣٠.

(٢) وجواب القسم اختلف فيه المفسرون اختلافاً كبيراً، فذكر بعضهم أن الجواب "قتل أصحاب الأخدود" وحذفت اللام للطول، والأصل (لقتل) ينظر: معاني القرآن، أبو زكريا ==



==

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧هـ) تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي ٢/٣٠٣، الطبعة الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، بدون، ومعاني القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ)، تحقيق: د/ هدى محمود قراة ٢/٥٧٥ الطبعة الأولى مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١١هـ-١٩٩٠م، واللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢٠/٢٤٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ.

وذكر بعضهم أن الجواب "إن بطش ربك لشديد" ينظر: معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ٥/٣٠٧، الطبعة الأولى، عالم الكتب - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

وذكر بعضهم أنه محذوف تقديره لتبعثن، أو دل عليه قوله: "قتل..."، أي: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود؛ لأن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة حتى يأنسوا ويصبروا على ما كانوا يلقون، ويعلموا أن كفارهم ملعونين عند الله أحقأ بأن يقال فيهم: قتلت قريش، كما قيل: "قتل أصحاب الأخدود"، وتذكير المشركين بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى بالمؤمنين. ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي ٤/٧٣٠، ٧٣١، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

وذكر البقاعي أن الجواب المحذوف دلّ عليه مقصود السورة وسوابقها ولواحقها، وتقديره: لنثوبن الفريقين الأولياء والأعداء، ولنُديننَّ كلا بما عمل؛ تسلية للمؤمنين، وتثبيتاً لهم بما وقع لأمتثالهم، وتحذيراً مما كان لأشكالهم. ينظر: نظم الدرر ٨/٣٧٧، ٣٧٨، ويراجع في ذلك كله مفاتيح الغيب ٣١/١٠٧، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل ٣/٨٧، دار إحياء التراث العربي - بيروت، والتحرير والتنوير ٣٠/٢١٤، ٢١٥.

==

واستهلال القصة القرآنية بهذا القسم بمنزلة التوطئة والتمهيد لذكر حادث الأُخُدود^(١)، والتشويق له، والإشعار بأهمية المُقسَم عليه، واللَّفَت إلى المُقسَم به؛ إذ بعضُه من دلائل عظيم القدرة المقتضية تَقَرُّده تعالى بالألوهية، وإبطال الشرك، وبعضُه مذكَّر بيوم البعث، رامزٌ إلى تحقيق وقوعه.

كما أنه يتلاقى مع سوابق السورة ولواحقها في سياقها: الترتيبي والنزولي، فضلا عما في المُقسَم به - (السماء بقيد صفة من صفاتها "ذات البروج" أي: التي تشبه دارات متلائة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار) - من تلاؤمٍ وتناسبٍ مع المُقسَم عليه (العبرة والعظة بقصة أصحاب الأُخُدود)؛ إذ الأُخُدودُ خطوطٌ مجعولةٌ في الأرض مستعرةٌ بالنار، فالقسم بالسماء بوصف (ذات البروج) يلفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة، وسعة العلم؛ فقد خلقها سبحانه على تلك المقادير المضبوطة...، والقسمُ باليوم الموعود إيماءً إلى وعيد أصحاب القصة المُقسَم على مضمونها ووعيدُ أمثالهم المعرض بهم، والقسمُ بالشاهد والمشهود يتلاقى مع حضورهم فتنَّ المؤمنين وإحراقهم،

==

وذكر ابن القيم أن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب؛ لأنه لقصد التنبيه على المُقسَم به، وأنه من آيات الرب العظيمة، ويبعد أن يكون الجواب "قتل أصحاب الأُخُدود" لأن ذلك دعاء وطلب. ينظر: التبيان في أيمان القرآن ابن القيم ١٤٣، دار عالم الفوائد، بدون.

(١) ينظر قصص القرآن عظات وعبر، د سعيد عبدالعظيم ٤٠٤، الطبعة الأولى، دار العقيدة للتراث، القاهرة ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.



وشهادة بعضهم لبعض عند الملك بأنَّ أحدا لم يُقَصِّر فيما وُكِّلَ إليه من تحريق المؤمنين^(١).

ومن ثمَّ تربط الآيات بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام، والحشود التي تشهده، والأحداث المشهودة فيه، وبين نعمة الله تعالى على الطغاة البغاة^(٢)، فتشترك السماء ذات البروج واليوم الموعود والشاهد والمشهود في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يُعرَضُ فيه حادثُ الأخدود، كما تُوجي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث، وتُورَنُ فيه حقيقته، ويُصَفَّى فيه حسابه، فهو أكبرُ من مجال الأرض، وأبعدُ من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود^(٣).

أما القصة النبوية فقد جاءت بلا توطئة ولا مقدمات، ولعل هذا

يتلاقى مع سياق الحديث المشحون بصنوف الأذى وألوان التعذيب والتكيل التي كان يلقاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه، ويشهد لذلك قوله: "لقد أوديتُ في الله وما يؤذني أحد... الحديث"^(٤)، وشكوى خباب بن الأرت^(٥)، فضلا عن ضيق المقام الذي يحكيه حديثُ صهيب^(٦)، فالسياقُ

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢١١ وما بعدها.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٧/٥٠٠، موقع التفاسير

<http://www.altafsir.com>

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٨/١.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) وقد سبق ذكرها أيضا.

(٦) سبق تخريجه.

سياقُ شِدَّةٍ وابتلاءٍ، ومن ثم ناسبه الدخولُ في القصة مباشرةً، والتركيزُ على جانبِ العِبْرَةِ فيها، من دون الحاجة إلى التقدّمات أو التوطّئات، وهو ما ينبئ عن أن النبي صلى الله عليه وسلم على وعي كامل بما يعتمل في نفوس أصحابه، وأنه لم يدّخر جَهْدًا وهو يزود عن تلك العقيدة التي غرسها في قلوبهم من خطر النفور البشري ووحشة الاغتراب، فإذا به يتعهدهم بالقصص، ويخبرهم أن لهم إخوةً مثلهم، كانوا يقولون، ويفعلون، ويشعرون، ويمثل ما كانوا يقولون هم ويفعلون ويشعرون؛ ليدركوا أنهم ليسوا منقطعين عمّن قبلهم، بل موصولين بخبرةٍ بشريةٍ عميقةٍ تضربُ بجذورها في عمق الأرض كالجبال والأشجار، ولتكون كلُّ قصةٍ جسرًا لهم عبر الزمان، يأتيهم فيه الأنسُ المُطمئنُّ لقلوبهم، والخبرةُ الضابطةُ لحركة حياتهم، والحقُّ المبطلُ لتحريفِ عدوّهم، والذكرى المُثَبِّتَةُ لهم^(١)..

٢- محتوى القصة في البيانين بين التشابه والاختلاف:

المتأمل في محتوى القصة في البيانين يلحظ أن البيان القرآني قد اكتفى من القصة بذكر خاتمتها، حيث عرض الحق تبارك وتعالى في سورة البروج بعد القسم الوارد في مطلعها المشهدَ المفجعَ في لمحاتٍ خاطفةٍ تودّع المشاعرُ فيه بشاعةَ الحادث من دون تفصيلٍ ولا تطويل، مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تَعَالَت على الفتنة مع شِدَّتِهَا، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يُشْرِفُ الإنسانَ في أجياله جميعا، ومع التلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغيٍّ وشِرٍّ وَتَسَلُّلٍ^(٢)، فذكرت

(١) ينظر: قصة أصحاب الأُخُدود(١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، محمود عشري، موقع طريق الإسلام.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٧/٥٠٠.

الآيات أن فئة من المؤمنين السابقين ابتلوا بأعداءٍ لهم طغاةٍ قساةٍ، فتتوهم ليطركوا عقيدتهم ويرتدوا عن دينهم، بأن شقوا لهم أخدودا في الأرض، وأججوا فيه النيران، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا، ففذفوهم فيها، فماتوا حرقاً على مرأى ومسمعٍ منهم بهذه الطريقة البشعة، ولم يستطيعوا- بجرمهم وجبروتهم- انتزاع عقيدتهم أو زعزعة ثباتهم، وطوى ما دار قبل هذه المحرقة؛ تكتيفا للأحداث، وتركيزا على المشهد الفعال الذي يستوعب أخطر أحداثها؛ لضمان أكبر قدر من الإثارة والتأثير، وتحقيق الهدف الذي سيقف من أجله القصة، وجاءت شاهدة عليه؛ وذلك لأن منهج البيان القرآنيّ التركيز على جانب العظة والعبرة التي تُبرِّز جوانب الوعد والوعيد، وما يناسب ذلك من صفات القدرة والعظمة والعلم، وهذا يُفسِّر ما ورد فيه من ذكر المآلات والعواقب للفريقين، والتعقيبات الختامية التي سأذكرها في موضعها من هذه الدراسة بإذن الله تعالى، ويتلاقى مع منشئها سبحانه، ولو شُغلت القصة القرآنية ببدايات الدعوة التي ذكرتها القصة النبوية لانقطع السياق المتصل في السورة وسوابقها ولواحقها في سياقها الترتيبي والنزولي إلى مجال الدعوة الذي توارى فيها خلف هدفها المباشر، وأصُرِف السامع عن الغرض الذي جيء بها شاهداً عليه ولأجله.

وهذا يؤكد أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص أو تاريخ أو أحاديث أسطورية أو أخبار أمم خالية تُذكر فيه القصص لمجرد التسلية أو التعريف بها فحسب، بل هي أجناس أدبية على غير مثال سابق، ترد فيه القصة

لهدف محددٍ لا تخطئه، وتتمتع بمقوماتٍ فنيةٍ وسماتٍ تركيبيةٍ وأسلوبيةٍ يفترق إليها أرفعُ القصصِ وأكثرُهُ فنيةً وشيوعاً واشتهاراً وانتشاراً، (١).

أما البيان النبوي فقد تحدث عن سياق القصة وبداياتها، وجُلُّ

أحداثها فيه منصبّةٌ على الدعوة وما يلقيه الدعاة وأتباعهم من المشاق في سبيلها والصبر على مصاعبها، حيث ركّزت على الداعية بصورة أكبر، فأبرزت دور الراهب ودور الغلام، ومن ثمّ فهي في البيان النبوي تُمثّلُ تجربةً كاملةً للدعوة في جميع مراحلها من البداية حتى النهاية، وكأنّها توطئةٌ وتمهيدٌ لما ورد في البيان القرآني؛ حيث افتتحت بما يسبقُ وجودَ الداعية والدعوة، فضلاً عن وجود المؤمنين بها في قوله صلى الله عليه وسلم: "كان ملك فيمن كان قبلكم"، تلك بداية القصة، وذلك هو التحديد التاريخي لأحداثها، الذي يبين أنها وقعت لقوم ممن كانوا قبلنا، مع اتفاق البيانين (القرآني والنبوي) في إبهام الأشخاص والمكان والزمان، فهي من القصص المجرد المقطوع عن الزمان والمكان والأشخاص؛ لتبقى العبرة منها من دون ارتباط بمكان أو زمان أو أشخاص، ومن دون تعلق بظروف أو أحداث أو مراحل ملابسات؛ للتجاوز القيد التاريخي، وتبقى متجردةً للعبرة في كل مراحل التاريخ، فهي وإن وقعت أحداثها في زمنٍ مضى نُقدّمُ نفسها بدروسها

(١) ينظر: بدائع الإضمار القصصي في القرآن، كاظم الطواهري ص: ٤٢، ٣٦٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.



ودلالاتها تجربةً حيةً حتى قيام الساعة^(١)، تواسي الذين يُفتنون في دينهم، وتُنَبِّئُهُمْ وَتُسَلِّيُهُمْ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ.

ثم يستمر البيان النبوي في سرد الأحداث التي لم ترد في البيان القرآني، فيذكر أن هذا الملك كان له ساحر كبرت سنُّه فأشار باختيار غلام يعلمه السحر؛ ليقوم مقامه، فبعث إليه الملك غلاماً، فسخر الله لهذا الغلام راهباً في طريقه، فأصبح في حيرة شديدة من أمره؛ لتلقيه معلومات متعارضة من مصدرين متناقضين، لكنه حرص على الجلوس إلى الراهب والتزود من الحق رغم التعنيف والإيذاء البدني الذي يلقيه من الساحر، فشكا إلى شيخه الراهب حالته تلك، فقدم له الحل: "إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر"، ثم تأتي لحظة كشف الحقيقة، وطمأنة النفس، ويقين الواقع بعد اليقين الفطري الذي كان يجده في نفسه تجاه الراهب، إذ أتت دابة عظيمة وحبست الناس، فقال: اليوم أعلم آساحر أفضل أم الراهب؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس.

ومن هنا تبدأ دعوة الغلام بخدمة الناس من خلال صدِّ الأذى ودفع المكروه عنهم، ومباشرةً يذهب إلى شيخه الراهب الذي فاجأه بقوله - بعد أن أخبره بما حدث - : "أي بني، أنت اليوم أفضل مني"، ثم يخبره بسنة الدعوة المضطربة، والحقيقة القاطعة: "إنك ستبتلى"، بعد ذلك ذكر الحديث شيئاً من

(١) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن دروس وعبر في الإيمان والدعوة والجهاد، د/ صلاح عبدالفتاح الخالدي ٧٦٨، ٧٦٩، الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

كرامات الغلام: "بيرى الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، وأنه ذاع صيته، وانتشر أمره، حتى سمع جليس الملك، وكان قد عمي، فجاءه بهدايا كثيرة عرضها عليه إن هو شفاه - ومن هنا تبدأ دعوة الغلام إلى الله، حيث تجردَ لربه ودينه ودعوته - فقال له: " أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك، فأمن، فشفاه الله، فلما عاد إلى القصر مبصرا سأله الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ فأجابه: ربي. فقال له: ولك ربُّ غيري؟ فأجابه: ربي وربك الله، فتسلط عليه بالتعذيب حتى دل على الغلام، فجيء به، فأخذ يتودد إليه قائلاً: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تيرى الأكمه والأبرص، وتفعل، وتفعل، فأجابه الغلام: أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذ الملك يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء به، وقام الملك بتعذيبه والجلس حرساً منه على ارتدادهما طمعا في قتل الدعوة، فثبتا على عقيدتهما، وأبيا الرجوع عن الدين، فقتلها بوضع المنشار في مفرق رأس كل واحد منهما وثقَّه حتى وقع شقاه، غير أنه لم يفعل ذلك مع الغلام الذي لما أبى الرجوع عن دينه دفعه إلى نفر من أصحابه، وأمرهم أن يذهبوا إلى ذروة الجبل فإن رجع عن دينه وإلا فليطرحوه فذهبوا به، فطلب من الله أن يكفيه إياهم بما شاء، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وعاد الغلام إلى الملك قائلاً - لما سأله (ما فعل أصحابك؟) -: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر غيرهم من أصحابه، وأمرهم أن يتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فليقذفوه، فذهبوا به، فسأل الله قائلاً: "اللهم اكفنيهم بما شئت" فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وعاد يمشي إلى الملك قائلاً له- لما سأله (ما فعل أصحابك؟) -: كفانيهم الله، ثم توجه إلى الملك قائلاً: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهما من كنانتي فتضعه في كبد القوس، ثم ترميني به وتقول: بسم الله رب الغلام، فإنك إن فعلت ذلك



قتلتني. ففعل فأصابه السهم في صدغه، فوضع يده في موضع السهم ومات، فهتف الناس بلسان واحد في لحظة واحدة: أما برب الغلام، أما برب الغلام، أما برب الغلام، ثم يأتي دور البطانة الفاسدة، بطانة السوء من المنافقين والمنتفعين الذين ذهبوا إلى الملك قائلين: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس، فلما شعر أن الأمور أفلتت من يده وأنه فقد السيطرة على تلك الجموع قرر المواجهة، وأمر بالأخدود على أفواه السكك فحُذَّت وأُضرمت فيها النيران، وأمر بعرض من آمن برب الغلام عليها، وقُدِّف من لم يرجع عن دينه فيها، أو أن يقولوا له: اقتحم، يأمرونه أن يدخلها بنفسه^(١).

وختمت القصة في الديان النبوي بقصة تلك المرأة التي خافت على صبيها فتأخرت وتباطأت^(٢)، ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار^(٣) فخاطبها أمرا إياها بالثبات والصبر، مبينا أنها على الحق: "يا أمه، اصبري فإنك على الحق"^(٤) والمنهج الصدق^(٥)،

(١) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن دروس وعبر في الإيمان والدعوة والجهاد ٧٦٨-٧٨٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ١٠٦/٤٥.

(٣) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) ١٣٠/١٨، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٢هـ.

(٤) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤٢٧.

(٥) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) حققه وعلق عليه وقدم له محيي الدين ديب ميسنر،

==

فصبرت واقتحمت النار^(١)، عند هذا الحد انتهت القصة في البيان النبوي بعد أن بينت لنا ما طواه البيان القرآني وأجمله، وهذا ما يتلاقى مع حال النبي صلى الله عليه وسلم ومع سياق ورود القصة النبوية، الذي كأنه صلى الله عليه وسلم من خلال هذا العرض يقول- للمؤمنين الذين يؤذون في عقيدتهم، ويعانون المصاعب في كل أرض وعصر، ولمن جاءه يشكو حاله من أصحابه، ويطلب نصرة الله "ألا تستنصر لنا"-: إن الدعاء إلى الله أيضا يواجهون صنوف الابتلاء أيضاً في كل زمان، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وإن حالي كحالكم...، وفي ذلك ما فيه من تسليتهم وتثبيتهم وتصبيرهم، ولم يكن ليناسب سياق القوة والعظمة والعلم والبطش الذي وردت فيه القصة القرآنية، وسياق المجازاة على الأعمال الممتد في السورة وسوابقها ولواحقها ترتيباً ونزولاً، والذي لا يكون إلا من العليم القدير سبحانه.

(ب) مشهد التعذيب والتحريق في القصة:

المشهد الذي عرضه البيان القرآني لتعذيب المؤمنين وتحريقهم وفتنهم جاء في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ

==
أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمود إبراهيم بزال ٢٨/٧، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ودار الكلم الطيب، دمشق- بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ) ١/٢٢٤، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦هـ.

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٤﴾ البروج: ٤

٧-، وهذا المشهد عبّر عنه البيان النبويّ بجملة واحدة، هي قوله: "ففعّلوا" بعد أن أمر الملك بحفر الأخدود وتوجيه الجنود بإلقاء من لم يرجع عن دينه فيه "فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكَ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ فِيهَا النَّيْرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجَعْ عَنِ دِينِهِ فَأَقْحَمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، ففَعَّلُوا"، هذه العبارة الموجزة المعبرة عن هذا الحدث الجليل الرهيب والشنيع الفظيع في بشاعته وضخامته، وهذا أسلوب مقصود في البيان النبوي؛ للقفز فوق هذا الحدث الجسيم وما يشبهه مما يتعرض له المؤمنون في مكة من الإيذاء والتعذيب والتنكيل، وكأنه لا شيء؛ لينتهي الأمر بما هو أولى من التركيز على هذا الحدث في حد ذاته، وتجاوزه إلى التحمّل والتصبر، ثقة بقدرة الله تعالى على إنهاء هذه الأحوال وتخليصهم من تلك الأهوال.

ولهذا ختمت القصة في البيان النبوي بقوله صلى الله عليه وسلم - بعد أن فعل جنودُ الملك ما فعلوا، وأقحموا المؤمنين في الأخدود المشتعل (أو أمرهم بذلك) - : "حتى جاءت امرأة ومعهما صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق" الذي يمثل - بما فيه من شجاعة وإقدام وثبات على الحق - مفاجأة مذهلة في القفز فوق الأهوال، وتخطّي العقبات، واستعداد الألام في سبيل العقيدة، فبدل أن يضعف الناس أو يهربوا لم تسجل الرواية أحدا منهم تراجع أو جبن أو هرب، وما كان منهم إلا الجد في اللحاق بركب الثابتين على الحق، وكأنهم يتلذذون بتقديم أرواحهم فداء لدينهم، باستثناء هذه الحالة الفريدة، تلك المرأة التي خافت على

رضيعها فتأخرت وتباطأت^(١)، ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار^(٢)، نسيت أنها قد أرضعته مع اللبن الذي كان يشربه الإيمان والشجاعة، فخطبها أمرا إياها بالثبات والصبر، مُبَيِّنًا أنها على الحق: "يا أمّه، اصبري فإنك على الحق"^(٣) والمنهج الصدق^(٤)، فصبرت واقتحمت النار^(٥)، عند هذا الحد انتهت القصة في البيان النبوي بعد أن بينت لنا ما طواه البيان القرآني وأجمله.

وهذا يؤكد ما بين البيانيين من تناسقٍ وتناسبٍ وتكاملٍ، فما سكت عنه البيان القرآني من سياق القصة وبداياتها وضحه وركّز عليه البيان النبوي، وما وضّحه البيان القرآني وركز عليه أشار إليه مجملا البيان النبوي. فضلا عن كونه يتلاقى مع سياق الدعوة، ومع حال الداعية ومن يدعوهم؛ ليشد من أزهم، ويرفع من معنوياتهم، ويطمئن قلوبهم، ويثبتهم على إيمانهم.

(١) ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، ١٠٦/٤٥.

(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٨/١٣٠.

(٣) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤٢٧.

(٤) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) حقه وعلق عليه وقدم له محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، ٤٢٨/٧، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ودار الكلم الطيب، دمشق - بيروت ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.

(٥) ينظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ١/٢٢٤، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦ هـ.



ج) الشهادة على المحرقة:

تفردت القصة في البيان القرآني بذلك، حيث ذكّرت أن الملك وأعوانه شهود على المحرقة ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ فهم قعود على أطراف النار وشفيروها والمواضع التي يمكن الجلوس فيها، يشاهدون أطوار التعذيب البشعة وفعل النار في أجسام المؤمنين^(١)، ويشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدا لم يفرط فيما وكل به من تحريق المؤمنين^(٢)، وفي ذلك ما فيه من تقطيع حالهم وتبشيع جرمهم؛ إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين لا يرأفون في ذلك ولا يشمئزون^(٣)، فضلا عما فيه من دلالة على قسوة قلوبهم وتحجرها^(٤)، كما أن في التعبير بالموصول "على ما يفعلون" من الإبهام ما يشهد أن لموقدي النار من الوزعة والعمل، ومن يباشرون إلقاء المؤمنين فيها غلظة وقسوة في تعذيب المؤمنين وإهانتهم والتمثيل بهم، وذلك زائد على الإحراق^(٥).

(١) ينظر: الكشاف ٧٣٢/٤، في ظلال القرآن ٢/٨، قصص القرآن عظات وعبر ٤٠٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٧/٣٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٨/٣٠.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ١٠٩/٣١، وروح المعاني ٩٠/٣٠، وقصص القرآن عظات وعبر ٤٠٨.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٨/٣٠.

(د) دافع الانتقام من المؤمنين.

وهو مما اختص به البيان القرآني الذي بيّن أن دافع انتقام الملك وجنوده من هؤلاء المؤمنين هو ثباتهم على إيمانهم بالله العزيز الحميد في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ البروج: ٨، (٩) الدال على مدى حقدهم وقسوة قلوبهم من خلال اصطفاء التعبير ب (نقموا) التي لم ترد إلا في سياقات معاداة المؤمنين، حيث جاءت في قول السحرة لفرعون عندما هددهم على إيمانهم واتباعهم موسى عليه السلام ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِغَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا...﴾ الأعراف: ١٢٦، وفي الحديث عن مكائد المنافقين للإسلام ونبيه وأتباعه ﴿...وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ التوبة: من الآية ٧٤، فهي تحلل نفسيات الطغاة وقتند، وتوضح جوّ جريمتهم وطبيعتها، وتصور مدى بشاعتها وشراستها، إنه الانتقام الذي يوجه حركته اللؤم والكيد والحقد، وتسيطر عليه النعمة والقسوة والشراسة والجور والبغي^(١)، والمقصود التعجيب من هؤلاء المجرمين الذين قلبوا الموازين وزيفوا الحقائق وجعلوا الحق باطلا والإيمان ذنباً^(٢) فظلموا أهله وقتلوهم بهذه البشاعة والفضاعة من دون أن يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة - وذلك ديدن المجرمين في كل بيئة وعصر - لا لجرم من شأنه أن يُنتقم من فاعله، بل

(١) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن عظات وعبر ٧٥٤.

(٢) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن عظات وعبر ٧٥٣.

هو حقيق بأن يُمدحوا به؛ لأنه الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي^(١) حيث آمنوا بالله حقيق بالإيمان به لصفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه^(٢) فهو العزيز الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شيء، الحميد، المحيط بجميع صفات الكمال^(٣) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشعاراً بمناب إيمانهم^(٤) وإشارةً إلى ملكيته السماوات والأرض وشهادته وحضوره لكل ما يقع فيهما^(٥)؛ تقريراً لاستحقاقه العبادة^(٦)، والجملة استئناف مفسح عن براءتهم مما يُعاب ويُنكر بالكلية^(٧).

هذه جريمتهم: أنهم آمنوا بالله الحقيق بالإيمان والعبودية، العزيز القادر على ما يريد، المستحق للحمد في كل حال، المحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال^(٨)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييل بوعد الذين عُذِّبوا في جنب الله وأمثالهم ممن عذبهم المشركون في كل بيئة وعصر، ووعيد للذين أحرقوا المؤمنين في الأخدود وأمثالهم ممن آذوا المؤمنين في كل

(١) ينظر: الكشاف/٤/٧٣٣، والبحر المحيط ٤٤٤/٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٨/٣٠.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٣٧٩/٨.

(٤) ينظر: تفسير أبي السعود ١٣٧/٩.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن ٥٠٠/٧.

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب ١١٠/٣١، وتفسير البيضاوي ٤٧٤/٥، دار الفكر، بيروت،

بدون.

(٧) ينظر: تفسير أبي السعود ١٣٧/٩.

(٨) ينظر: في ظلال القرآن ٢/٨.

زمان ومكان^(١)، فهو لمسة طمأنة لقلوب المؤمنين بأن لهم بعد ذلك عند ربهم حساب، ولمسة تهديد للعتاة المتجبرين الطاغين بأن لهم أيضا عند الله حساب^(٢)؛ لأن شهادته على جميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين، وعلمه بها يستدعي توفير جزاء لكل منهما^(٣)، وقد خلا البيان النبوي من هذا الأمر؛ لأن علمه عند الله تعالى، فهو وحده المطلع عليه، الذي يعلم ما تخفيه الصدور.

هـ) المآلات والعواقب:

وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا فِي آسَافٍ مُّسْمَرُونَ﴾^(١)، وهو مما اختص به أيضا البيان القرآني وخلا منه البيان النبوي، وفيه جانبان:

الأول: فتح باب التوبة للظالمين الناقمين الذين قاموا بهذه المحرقة وأزهقوا أرواح المؤمنين، ودعوتهم إلى دخوله قبل أن يُغلق، وبيان أنهم إن

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٩/٣٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢/٨.

(٣) ينظر: الكشاف ٧٣٣/٤، وتفسير أبي السعود ١٣٧/٩، والبحر المحيط ٤٤٤/٨.



فعلوا ذلك تجاوز الله عن جرائمهم، وعفا عن كل ما ارتكبوه، وقبلهم مع أوليائه^(١)، ما أعظم رحمة الله وأوسعها لمستحق العقاب إذا تاب وأناب!!!

وهذا من خصائص رب العباد؛ لأنه لا يغفر لمن تاب من المجرمين مستحقي العقاب إلا من اتصف بطلاقة القدرة، وكان في غاية العظمة، بحيث لا راداً لما يفعل، ولا معقب لما يحكم، وكذلك الأمر في عقابه وإثابته؛ لأنه سبحانه هو الفاعل المختار؛ إذ لا يقدر على محو الذنوب أعينها وآثارها بحيث لا يحصل لصاحبها عقاب ولا عتاب من أحد أصلاً إلا من كان قادراً على كل شيء^(٢)، أما البشر فيقف حدّهم عند نهاية الحدث الدنيوي؛ ومن ثم خلا البيان النبوي من الحديث عن التوبة وقبولها من هؤلاء، ولم يذكر الحديث شيئاً عن ذلك، وعليه فجملة " ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا " تعريض بالترغيب في التوبة^(٣) يتلاقى مع سعة رحمة الله تعالى وطلاقة قدرته، ومع الفترة المكية التي كان الإسلام فيها ما زال وليداً في مهده لم يقوَ بعدُ ولم ينتشر.

الثاني: نكر الجزاء الأخروي:

(أ) عقاباً، إن هم أصروا على كفرهم وظلمهم وحقدهم على المؤمنين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِي عَذَابٍ مُّحْرَقِينَ﴾ وفاقاً على القاعدة

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٣١/ ١١١، ومع قصص السابقين في القرآن ٧٥٨، وقصص القرآن عظات وعبر ٤١٣.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٨/ ٣٨١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢١٩.

المضطردة (الجزء من جنس العمل)، فإحراقهم المؤمنين في الأخدود يتلاقى بالتقابل معه ويلانمته ويناسبه أن يحرقهم الله في نار جهنم يوم القيامة.

فضلا عما في ذلك من التنكية بهم بإهلاكهم شر إهلاك، مغلوبين مقهورين، تلاقيا مع قطعهم أنهم الغالبون(١)، وهذا ما أبرزه جليا النص على الحريق المفهوم من عذاب جهنم في ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَحْرَقَ﴾ بسبب فتنهم المؤمنين(٢)، لكن أين حريقٌ من حريق في موقده وشدته ومدته؟

فموقد نار حريق الدنيا المخلوقون المجرمون الظالمون، أما حريق نار الآخرة فموقده الخالق العزيز القهار الجبار.

مع حريق الدنيا رضا الله تعالى وإنعامه وجنته، أما حريق الآخرة فمعه غضب الله وسخطه ونقمته، حريق الدنيا لحظات وينتهي، أما حريق الآخرة فأباد لا نهاية لها(٣).

ب) ثوابا، للثابتين على إيمانهم حتى الموت - وقد كان في مكنتهم النجاة بحياتهم مقابل هزيمة إيمانهم(٤) - لتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين، على عادة القرآن في إرداف التهيب بالترغيب(٥)؛ لتستقر

(١) ينظر: نظم الدرر ٨/٣٨٠.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٩/١٣٧.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٨/٣، ومع قصص السابقين في القرآن ٧٥٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٨/٢.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢٢١.



هذه الحقيقة في قلوب القلة المؤمنة المضطهدة التي تتعرض للفتنة في مكة، وفي قلوب كل فئة مؤمنة في كل عصر ومصر^(١).

وتقديم عقاب الكافرين المعاندين على ثواب المؤمنين؛ لأن المقام له^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من المطروحين في الأخدود وغيرهم^(٣) من كل طائفة في كل زمان^(٤) ﴿هُمَّ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾؛ ليتلذذوا ببردها جزاء مقاساتهم نيران الأخدود الحسية في الدنيا وصبرهم على حرها، وليروقههم النظر إليها مع خضرة الجنان والوجوه الحسان الجالبة للسرور مقابل معاناتهم المعنوية من الترهيب والغم الناشئ من فتنهم بالعرض على النار^(٥)، ولهذا جاء التعبير بما يفيد عظمتهم من خلال أسلوب القصر بتقديم المتعلق والتعبير بلام الملك "لهم" وجمع "جنات" ووصفها بجري الأنهار النابعة من تحتها، وهذا ما أكدته التذييل ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾، حيث قصر الفوز عليه، ووصفه بـ (الكبير) الدال على شدته في بابه^(٦)، والذي تصغر عنده الدنيا

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٢/٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٣٨٠/٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٤٤/٨.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٣٨٠/٨.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٣٨٠/٨.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢١/٣٠.

وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها، فضلا عن الإشارة إليه بـ (ذلك) الموضوع للبعيد؛ للإيدان بعلو درجته وبعد منزلته في الفضل والشرف^(١).

٣- التعقيبات الختامية:

من الأمور التي انماز بها البيان القرآني عن البيان النبوي وتفرّد بها في قصة أصحاب الأخدود التعقيبات الختامية التي تصدع بالحقيقة التي يسلم لها كل ذي عقل راجح وفطرة سليمة، وتوضّح أن ثمة ارتباطا قويا بين القصة وتلك التعقيبات التي تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التي أزهقت في حادث الأخدود، من خلال البناء الأسلوبي والفني والموضوعي للقصة، فهي كلها تلتحم في نسيج قوي يتوسطه الحدث الأصلي الذي يدفع القصة إلى غايتها؛ لتحقيق الغرض منها، ولتلقّي هذه التعقيبات وراء الحادث إشعاعات بعيدة الآماد، تفوق طاقات البشر، تلوّح ببطش الله الشديد، الذي يبدئ ويعيد، وتعدّد صفاته تعالى التي تصوّر الهيمنة المطلقة، القدرة المطلقة، والإرادة المطلقة، وتشير إشارات سريعة إلى سوابق من أخذ الله تعالى للطغاة وهم مُدَجَّجون بالسلاح: مصرعين متنوعين في طبيعتهما وآثارهما ليقيا بظلالهما مع حادث الأخدود، وفي النهاية تؤكد إحاطة الله تعالى بالكافرين، وتقرر حقيقة القرآن ورفعته، وثبات أصله وحياطته^(٢)، وهذه التعقيبات كالتالي:

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٩/١٣٨.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٧/٥٠٠، ١/٨.



(أ) التعقيب الأول: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيُ

وَيُعِيدُ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا

يُرِيدُ ﴿ البروج: ١٢ - ١٦

ومقصوده بيان قدرة الله تعالى على الانتقام من أعدائه ونصرة أوليائه؛ إذ البطش في الأصل تناول الشيء بصولة^(١) وأخذه بعنف، ووصفه ب (شديد) يزيد من عنفه وتفاقمه، فهو تهديد في صورة الخبر^(٢) يُظهر حقيقة بطش الله تعالى وشدته في أخذ أعداء الدين بالعنف والسطوة وغاية الشدة^(٣)؛ لكمال قدرته التي يشهد لها جمع الشيء وضده: ﴿إِنَّهُ هُوَ

يُبْدِيُ وَيُعِيدُ﴾ يوجد أي شيء أراد على أي هيئة أراد، ثم يعيد ذلك الشيء بعد إفنائه في أي وقت أراد^(٤)، فضلا عما فيه من تهديد الظالمين وترهيبهم تأكيدا لتعذيب من لم يتب منهم في الآخرة، وهذا ما دلَّت عليه الأوصاف المتتابعة في السياق، وعلى المقابل ترغيبا في التوبة، وحثًا عليها هو سبحانه ﴿الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ المحاء لأعيان الذنوب وآثارها بحيث لا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب أصلا، وليس ذلك فحسب، بل يتوود لمن محا ذنبه من التائبين فيُلقي عليه محبةً كبيرةً واسعة

(١) ينظر: المفردات للراغب ١٢٩.

(٢) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤١٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٣٨٠/٨.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٣٨١/٨.

تجعل له في قلوب الخلق رحمة، ثم يعود للترهيب من جديد دالاً على اختصاصه بالملك، وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة؛ تأكيداً على كمال قدرته بذكر ما لا ينازع أصلاً في اختصاصه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ : الشريف، العظيم، الرفيع، ثم يختم هذا التعقيب بذكر نتيجة هذه الاختصاصات، ومحصلة هذه الأوصاف ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ الدالُّ على أنه سبحانه لا يؤوده أو يرده عما أراد شيء، ولا يتخلف عن إرادته مراداً^(١).

فضلاً عما في ذلك من زيادة ترهيبٍ وتهديدٍ من لم يُثب من الظالمين الذين قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْمَحْرَقَةِ، وترغيبٍ وطمأننةٍ وتثبيتٍ للمؤمنين؛ لما فيه من زيادة تحقيق للصفتين: البطش بالأعداء، والغفران والود للأولياء^(٢).

ومن ثم فإن التعقيب الأول على القصة بإظهار حقيقة البطش وشدته، وهذا التهديد والترهيب المتكرر في ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، و ﴿يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾، و ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لِيَتَلَقَّى وَيَتَلَاءَمَ مع ما مر من مظهر البطش والقسوة والشدة ممن تسلطوا على عباده في حادث الأخدود فقتلوهم حرقاً وهم شاهدون ينظرون، بل ويستمتعون بتعذيبهم وإهلاكهم.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ١٣٨/٩، ونظم الدرر ٣٨١/٨، وفي ظلال القرآن ٤/٨،

والتحرير والتنوير ٢٢٣/٣٠.

(٢) ينظر: روح المعاني ٩٣/٣٠.

كما أن تقديم ما يدل على البطش في التعقيب على ما يدل على المغفرة والود لِيَتَّلاَقِيَ مع سياق هذه المحرقة، كما أنه يتلاقى مع تقديم عذاب الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات على إثابة الذين اختاروا ربهم على كل شيء من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قال الرازي: "لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولاً وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانياً أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد، فقال لتأكيد الوعيد: "إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ"، ثم إن هذا القادر لا يكون إمهاله لأجل الإهمال، لكن لأجل أنه حكيم إما بحكم المشيئة أو بحكم المصلحة، وتأخير هذا الأمر إلى يوم القيامة؛ فهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: إنه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء؛ ليجازيهم في القيامة، فدل الإهمال لهذا السبب لا لأجل الإهمال، قال ابن عباس: إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً، ثم يعيدهم خلقاً جديداً فذاك هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾ ثم قال لتأكيد الوعد: ﴿وَهُوَ أَلَّغُفُورٌ أَلَّوْدُودٌ﴾ فذكر من صفات جلاله وكبريائه خمسة أولها الغفور... (١).

وتوجيه الخطاب في ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن بطش الله تعالى بالذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات فيه نصر للنبي صلى الله عليه وسلم وتشببت له (٢).

(١) مفاتيح الغيب ٣١/١١٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٢.

(ب) التعقيب الثاني: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

البروج: ١٧، ١٨

وهو استئناف مقررٌ لشدة بطشه تعالى بالكفرة العتاة والظلمة الطغاة العصاة، ولكونه تعالى فعالا لما يريد؛ تثبيتا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتسلية لهم بأنه سيصيب الطغاة المجرمين الجدد في كل زمان ومكان - تخويفا وترهيبا وزجرا وردعا - ما أصاب أمثالهم القدامى.

ودلّ على ذلك بما أصاب الجنود (المستعدين الأفياء) فرعون وثمود؛ تمثيلا وبيانا لشدة نقمته، وطلاقة قدرته، ونفاذ إرادته^(١)، فذكر لذلك أنموذجين مختلفين في طبيعتهما ونتائجهما:

الأول: حديث فرعون الذي أهلكه الله وجنّده ونجّى بني إسرائيل ومكّن لهم في الأرض فترة؛ ليحقق بهم قدرا من أقداره وإرادة من إرادته.

الثاني: ثمود، الذين أهلكهم الله عن بكرة أبيهم ونجّى صالحا والقلة المؤمنة معه، ولم يكن بعد ذلك ملكٌ ولا تمكينٌ، بل فقط مجرد نجاة من القوم الفاسقين.

وهما أنموذجان لفعل الإرادة وتوجّه المشيئة، وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة مع الاحتمال الثالث الذي وقع لأصحاب الأخدود، يعرضها القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه، ولكل

(١) ينظر: أبو السعود ١٣٩/٩، ونظم الدرر ٣٨١/٨، وروح المعاني ٩٣/٣٠، وفي ظلال القرآن ٤/٨، والتحرير والتنوير ٢٢٤/٣٠.



المفتونين في دينهم في كل زمان ومكان^(١)؛ لتكتمل الصورة؛ تثبيتا لهم وتسرية عما ينالهم من الأذى في سبيل العقيدة.

والاستفهام ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ مستعمل لتهويل حديث الجنود؛ كي يُسأل

عنه؛ تعريضا للمشركين بأنه قد يحل بهم ما حلّ بأولئك، والخطاب عام لكل من يُراد موعظته من المجرمين المتجبرين - تذكيرا بحال من سبقهم؛ لأن حال المتلبسين بمثل صنيعهم، الراكبين رؤوسهم في العناد كحال من لم يعرف خبرهم، ومن ثمَّ يُوجَّه إليهم السؤال: هل بلغكم خبرهم؟^(٢) - وتثبيتا وتسلية للمؤمنين المستضعفين في كل عصر بطلاقة قدرته تعالى ونفاذ إرادته وشدة أخذه ونقمته.

والمراد من حديث الجنود: ما حدث لهم من البطش والنكال لتكذيب الرسل^(٣) والتمادي في الكفر والضلال^(٤).

واختيار (فرعون) هنا من بين الأمم المهلكة - وهم كُثُر - بعد أصحاب الأخدود؛ لما بينهما من المشابهة والمشاكلة في الأوجه التالية:

١- فرعون طغى وادعى الربوبية، والملك في القصة كذلك، حيث قال لجليسه - لما سأله بعد أن عاد إليه مبصرا وأخبره أن ربه شفاه - : ولك رب غيري؟

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٤/٨، ٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٤.

(٣) ينظر: نظم الدرر/٣٨٢.

(٤) ينظر: روح المعاني ٣٠/٩٣.

٢- فرعون عذَّب بني إسرائيل وسامهم سوء العذاب بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، والملك عذب الجليس حتى دلَّ على الغلام، والغلام حتى دلَّ على الراهب، ثم قتل الراهب والجليس شقهما بالمنشار، وقتل الغلام بسهمه، ثم جميع من آمن وثبت على إيمانه بتحريقهم في نار الأُخدود.

٣- فرعون قدَّم له موسى من آيات ربه الكبرى - وهي معلومة مشهورة - فكذَّب وعصى، والغلام قدَّم للملك آيات كبرى أيضا، منها قتل الدابة التي في طريق الناس، وإبراء ما استعصى من الأسقام بإذن الله.

٤- فرعون عجز عن إدراك موسى عليه السلام، والملك عجز في محاولاته قتل الغلام؛ إذ نجَّاه الله من الدَّهْدَهَةِ من قمة الجبل ومن الإغراق.

٥- فرعون جمع الناس ليشهدوا عجز موسى عليه السلام عن مجارة السحرة، فانقلب الموقف عليه فأمن السحرة والناس، والملك جمع الناس ليشهدوا انتصاره على الغلام وقتله والتخلص منه ومن دعوته، فانقلب الموقف عليه وآمن الناس برب الغلام.

٦- فرعون هدد من آمنوا بالعذاب، إذ قال ما حكاه القرآن لما آمنَ السحرة: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ ۗ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۗ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ

وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿ طه: ٧١ ﴾، فثبتوا على دينهم قائلين: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَئِنْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا ءَامِنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ طه: ٧٢ ﴾، ٧٣، والملك في قصة أصحاب الأخدود هدد من آمنوا، وأمر جُنْدَهُ بِحَدِّ الْأَخْدُودِ، وإضرام النيران، وعرضهم عليها، فمن رجع عن دينه تركوه وإلا ففيها قذفه، فثبتوا أيضاً على إيمانهم، وأقبلوا عليها غير مترددين، إلا ما كان من أمر المرأة المرضعة؛ إشفاقاً على رضيعها الذي ثبتها حتى تقدمت (١).

فظهر بذلك ما بينهما من تناسب، غير أن قصة فرعون اختتمت بمصرعه غرقاً أما قصة الملك فتوقفت عند هذا الحد، ولم يرد فيها ذكر نهايته لا في البيان القرآني ولا في البيان النبوي؛ لأن لكل منهما عبرة وعظة، والله سبحانه في ذلك حكمة.

أما اختيار (ثمود) بعد فرعون؛ فلما بينهما من تناسب في مظاهر القوة والجبروت والطغيان، حيث جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي

(١) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤٢٠.

الْبَلَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ
رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿ الفجر: ٩-١٤ (١).

فضلا عن تناسب قصة ثمود وتلاؤمها مع قصة فرعون وأصحاب
الأخدود في وضوح الآيات؛ إذ حملت (ثمود) الخفة والعناد والإجرام على أن
عقروا الناقة بعد رؤيتهم إياهم تتكون من الصخرة الصماء، غير مكثرين بأن
الذي خرق العادة بإخراجها ذلك يهلكهم في شأنها (٢).

وذكر ابن عاشور أن ضرب المثل للمشركين بقوم فرعون؛ لأنهم
أكبر أمة تألّبت على رسول من رسل الله بعثه الله لإعتاق بني إسرائيل من
ذل العبودية لفرعون...، وتخصيص ثمود من بين بقية الأمم المكذبة من
العرب، مثل عاد، وقوم تُبَّع، وقوم نوح وشعيب؛ لما اقتضه الفاصلة السابقة
الجارية على حرف الدال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ فلما استقامت به
الفاصلة ولم يكن في ذكره تكلف كان من محاسن نظم الكلام إيثاره (٣).

وذكر أبو حيان أن ذَكَرَ ثمود لشهرة قصتهم في بلاد العرب، وذكر
فرعون لشهرة قصتهم عند أهل الكتاب وعند العرب الجاهلية أيضا...، وأنه
دلٌّ بقصتهما على أمثالهما من قصص المكذبين وهلاكهم (٤).

(١) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤٢١.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٣٨٢/٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٣٠.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٤٤٥/٨.

وفذلكة الأمر أن المقصود من هذا التعقيب تقرير وتأكيد شدة بطشه تعالى بالظلمة الطغاة والكفرة العتاة، وكونه فعالا لما يريد؛ طمأنة وتثبيتا لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمفتونين المستضعفين ممن آمن به، وتسليتهم بأنه سيصيب الطغاة - الذين فتتوهم وعذبوهم وآذوهم - ما أصاب فرعون وثمود؛ تهديدا لهم، وترهيبا وردعا وزجرا؛ علَّهم يعودون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، وبهذا تلاقى مقصود هذا التعقيب ومقصود قصة أصحاب الأخدود، وتلاءم معه أتم تلاؤم.

التعقيب الثالث: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾

البروج: ١٩، ٢٠

وهو تعقيب قوي جازم فيه تقرير وكلمة فصلٍ وحكمٌ أخيرٌ (١) يؤكد فيه الحق سبحانه قدرته على أخذهم، من خلال بيان أنه - بعلمه وقدرته على أن يفعل بهم ما فعل بمن أهلكهم قبلهم - محيطٌ بهم من كل جهة، وأنهم في قبضته، لا يفوتونه بوجه؛ تسليَةً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيتاً له ولمن آمن معه، على صورة إضرابٍ انتقاليٍّ يوضِّحُ إعراضهم عن الاعتبار بحال المكذبين من قبلهم، وتمكَّنَ التكذيب - الذي لم يترك لعقولهم مسلكاً لتذكر ما حل بأمثالهم - منهم؛ ولهذا قال: ﴿فِي تَكْذِيبِ﴾ ولم يقل: (يكذبون)؛ للدلالة على إحاطته بهم إحاطة الطرف بالمظروف (٢)، وبيان أنهم أشدُّ ممن سبقهم في الكفر والطغيان واستحقاق العقاب (٣) تحذيراً لهم، وتعجيباً من

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٥/٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٣٠.

(٣) ينظر: أبو السعود ١٣٩/٩.

حالهم بعد رؤيتهم الآيات البيّنات، وسماعهم أخبار المكذّبين من المهلكين قبلهم، ورؤيتهم بعض آثارهم^(١)، إذ إنهم مع كل معاني الترغيب والترهيب تلك يفتنون آثار من سبقهم، فيمسون ويصبحون في تكذيبٍ أشد من تكذّيبهم^(٢)، لا ينتفعون بوعظ، ولا يكفون عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه^(٣)، وهذه حال الكفار مع المرسلين والمؤمنين على مرّ العصور^(٤)؛ ولهذا قوبلت إحاطة التكذيب بهم -جزاء وفاقا - بإحاطة العذاب بهم.

فكما أن التكذيب متمكّن منهم تمكّن الظرف بالمظروف، فالله تعالى متمكّن منهم، محيطٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم، قادرٌ عليهم لا يعجزونه^(٥)؛ تمثيلاً لانتظار العذاب إياهم وهم في غفلة منه، وعدم نجاتهم من بأس الله، وتشبيهاً لحالهم بمن أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم، حتى إذا رام الفرار والإفلات وجدّ العدو محيطاً به^(٦)، وفي هذا ما فيه من تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم والمستضعفين من المؤمنين، بعد أن طيّب قلوبهم بحكاية أحوال الأولين ووصف اقتداره تعالى عليهم^(٧)، فضلاً عما فيه من الوعيد الشديد والترهيب والتهديد للطغاة المكذّبين، وبهذا يتلاقى مقصد هذا التعقيب مع مقصد قصة أصحاب الأُخدود، ويتلاءم معه..

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧٣٤، ونظم الدرر ٨/٣٨٢، ٢٨٣، وتفسير البيضاوي ٥/٤٧٥.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/٧٣٤، تفسير البيضاوي ٥/٤٧٥.

(٣) ينظر: قصص القرآن عظات وعبر ٤٢٢.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٣١/١١٤.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/٧٣٤.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٥.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب ٣١/١١٤.

التعقيب الرابع: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ البروج: ٢١، ٢٢

وهو تعقيب نهائي قوي جازم في صورة إضراب لرد كفرهم وإبطال تكذيبهم؛ إحقاقا للحق^(١)؛ لأن القرآن جاءهم بدلائل بينة^(٢)، مُقيما الدليل الأعظم لنفسه بما له من الإعجاز في نظمه وصحة معانيه وإخباره بالمغيبات وغير ذلك على أنه حق^(٣)، ومن ثم فاستمرارهم على التكذيب ناشئ عن سوء اعتقادهم^(٤)، ولهذا قال مُعَبِّرًا بالضمير: (بل هو) إيذانا بأنه لعظمه في كل قلب لا غيبة له أصلا (قرآن) جامع لكل منقبة جليلة، بالغ الذروة العليا في كل شرف^(٥)، فاصطفاء التعبير به إشارة عرفية إلى أنه وحي من الله؛ تعريضا بإبطال ما اختلقه المكذبون مما وصفوه به من كهانة أو أساطير الأولين أو نحو ذلك^(٦) (مجيد) شريف عظيم عالي الطبقة بين الكتب السماوية^(٧)، حاوٍ لمجامع الكمال والحمد، وحيد في نظمه ومعانيه المغيبة والمشاهدة^(٨)، لا ريب فيه، لا يضره تكذيب هؤلاء^(٩)، ومجد القرآن؛ لأنه أعظم الكتب السماوية، وأكثرها معاني وهديا ووعظا، ويزيد عليها

(١) ينظر: أبو السعود ١٣٩/٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٣٠.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٤٦/٨، ونظم الدرر ٣٨٣/٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٣٠.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٣٨٣/٨.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٥/٣٠.

(٧) ينظر: الكشاف ٧٣٤/٤، وأبو السعود ١٣٩/٩.

(٨) ينظر: نظم الدرر ٣٨٣/٨.

(٩) ينظر: روح المعاني ٩٣/٣٠.

ببلاغته وفصاحته وإعجازه البشر عن معارضته^(١) (في لوح محفوظ) على أتم الوجوه من كل خلل، ومن أن يصل إليه غير الملائكة الكرام^(٢)، لا يلحقه أذى ولا تبديل^(٣)، ولا زيادة ولا نقص^(٤).

وحفظ اللوح كناية عن حفظ القرآن وتقديسه، والكلام مسوق مساق التنويه بالقرآن وباللوح الذي أودع فيه؛ إذ هو كائنٌ قدسيٌّ من كائنات العالم العلوي الغيبية المحفوظة^(٥).

فحفظ القرآن من التغيير والتبديل والتحريف، ومن كل شبهة وريب في نظمه أو معناه يتلاقى مع البروج المحفوظة في لوح السماء المحفوظ...، وبذلك عاد ختام السورة على مبتدئها، وتعانق منتهاها ومفتتحها، فاقترض ذلك تنزيه المتكلم به عن أن يترك شيئاً فضلاً عن الأنفس بغير حفظ، وعن كل ما لا يليق، وإثبات الكمال له بكل طريق^(٦).

وفي الإخبار بأنه محفوظ مصون ثابت لا يطرأ عليه ما يغيره ما فيه من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته ومن آمن معه، بل هو كما قال الإمام الرازي: من أعظم موجبات التسلية^(٧)، ومن ثم تلاقى التعقيب الختامي النهائي الأخير مع مقصد قصة أصحاب الأخدود، وتلاءم معه أتم ملاءمة.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٧/٣٠.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٣٨٣/٨، وروح المعاني ٩٣/٣٠، ٩٤.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٤٦/٨.

(٤) ينظر: روح المعاني ٩٣/٣٠.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢٧/٣٠.

(٦) ينظر: نظم الدرر ٣٨٣/٨.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب ١١٤/٣١.



المبحث الرابع: الأسلوب القصصي في الوحيين بين التشابه والاختلاف

معلومٌ أنّ لكلِّ قصةٍ أسلوبها القصصي الذي يتناسب مع غاياتها المؤمّة وأهدافها المقصودة، ويتلاقى ومساقاتها وملابساتها، فضلا عن محتوياتها ومضامينها، والمتأمل في أسلوب القصص في البيانين يلحظ اختلافا كبيرا؛ حيث اعتمد البيان القرآني على أسلوب السرد في عرض أحداث قصة الأخدود، بينما زوج البيان النبوي بين السرد والحوار، موظفاً كلاً في كشف ملابسها بما يحقق أهدافها، ويُمكن من إدراك الأثر المطلوب منها، وبيان ذلك تفصيلاً كما يلي:

(أ) البيان القرآني:

ذكرتُ أن البيان القرآني قد اعتمد في عرض أحداث القصة على أسلوب السرد الموضوعي الذي يكون فيه الراوي مطلعاً على كل شيء، بما في ذلك أفكار الأبطال، لأنه الذي يتناسب مع العليم الخبير، فضلا عن تلاؤمه مع سياق السورة (الترتبي والنزولي) المشحون بالفصل بين الفريقين ومآلهما ومجازتهما، فضلا عن صفات العزة والقدرة كما سبق في الحديث عن سياق السورة، وقد جاء السرد مبهرًا؛ إذ تميز بالتكثيف النصي المعجز، الذي نقل الأحداث - في خمس آيات فقط - من حيّزٍ زمني قديم ضيق إلى أحيازٍ زمنيةٍ متسعةٍ متجددةٍ على مرِّ الأزمان، في عرضٍ سرديٍّ متصاعدٍ، تتطور فيه الأحداث وتتوالى حسب أهداف القصة المؤمّة وأغراضها المرؤمة، فرُتبت الأحداث حسب زوايا محددة، قرأناها موضوعية محسومة ومعلومة في العالم الخارجي؛ لأن ساردها محيط بكل شيء علما، ومن ثم جاء السرد بالغ الدقة في الأداء، بليغ الرقة في تحقيق الهدف، مشحوناً دلالياً، متواتراً مطرداً

لهيمنة السارد على الصيغة والخطاب (١)، كاشفا ما عاناه المؤمنون وما فعله بهم الطغاة المجرمون، معتمدا على البنى العميقة التي تتألف من تصورات تركيبية ودلالية شمولية تتحكم في دلالة السرد (٢) بنماذجها اللغوية المشعة، وخطاباتها التي تستفز المتلقين وتدعوهم إلى إدراك ما بها من جماليات، وما تحويه من فرائد لغوية وبيانية يعجزون عن ملاحقة أطرافها المتنوعة والمتعددة (٣)؛ لتحقيق ما تصبو إليه القصة من تثقيف وعظة وتوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المستضعفين نحو الموقف المطلوب سماويا.

فجاء سردا موضوعيا واقعيا تتحرك فيه الشخصيات الرئيسية على مسرح الأحداث في طغيان وقسوة وجبروت؛ لتجسيد معاني الكفر والبطش والإجرام من الطغاة الذين خَدُوا الأخدود وأضرموا فيه النيران، وألقوا فيه المؤمنين، وليس ذلك فحسب، بل جلسوا على جوانبه يتابعون هذه العملية البشعة، يستمتعون بها عن قرب ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، منبئة عن انتكاس فطرتهم، مبينة أن كل هذه البشاعة لا لذنوب أو خطيئة، إنما هي لإيمانهم بإله حقيق بالعبودية والتوحيد ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ...﴾، وتتحرك فيه الشخصيات الثانوية في ثباتٍ وصبرٍ وقوةٍ تحمّلٍ؛ لتجسيد معنى

(١) ينظر: جماليات السرد القرآني في قصة ذي القرنين دراسة سيميائية، د أسامة عبدالعزيز جاب الله، ص ٥، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة، العدد ٤٥، شتاء ٢٠١٠م.

(٢) ينظر: المصطلح السردى للقصص، جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، ص ٢٢٦، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣) ينظر: جماليات السرد القرآني في قصة ذي القرنين دراسة سيميائية، ص ٥.



رسوخ العقيدة، غير عابئة بما تلقاه في سبيلها من إيذاء نفسي وبدني، في ثنائية متضادة (بين الكفر والقسوة والطغيان والإجرام من جهة، والإيمان والثبات والصبر والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة من جهة أخرى) طاوية ذكر أسماء الأشخاص وتحديد الزمان والمكان؛ لتضفي على البنية السردية شحنات عاطفية، وثرأ لغويا، وعمقا دلاليا يبرز الصراع الضارب بجذوره في التاريخ بين الفريقين في لمحات خاطفة؛ لتعم بها العبرة، تصيرا وتثبيتا للمؤمنين المضطهدين المستضعفين في كل زمان ومكان.

ب) البيان النبوي:

أما البيان النبوي فقد زواج في القصة بين السرد والحوار؛ إذ اعتمد في بدايتها على السرد "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ" الذي يحمل في طياته تلخيصا لفكرة القصة، ويشي بما ستؤول إليه، من خلال تحديد ملامح شخصياتها، حيث بيّن أن الحاكم المسيطر (ملك) يرى البقية خدمه وعبيده، وأن الذي يعتمد عليه في حكمه (ساحر) يزيّف الواقع، ويقلب الحقائق، ومن ثم فهو يحكم الناس بالجهل، ويعتمد على الترهات والخدع في تثبيت ملكه وتسييس الناس وتعبيدهم(١)، ثم يأتي دور الحوار الذي يضفي على الأحداث الذاتية التي تسمح للشخصية أن تفرّض نفسها مُنْتَجَةً كلاما يميزها عن غيرها؛ لأن لكل شخصية في الكلام أسلوبها الذي هو بمنزلة الهوية الخاصة بها(٢)، فيأتي الحوار (فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُ السِّحْرَ) -على وجازته- قطعة معبرة بدقة عن

(١) ينظر: صحيح القصص النبوي، عمر سليمان عبدالله الأشقر ٣٠٩، الطبعة الأولى،

دار الفنائس للنشر والتوزيع، الأردن ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٢) ينظر: في السرد، عبدالوهاب الرقيق ٧٣، دار الكتاب العربي القاهرة ٢٠٠٤م..

المعاني على كثرتها من دون أي خلل، مندمجة في السرد تتقلنا إلى بيئة الحدث، وتهيء لنا أن نحيا في جو القصة العام (١) وجو الحوار وكأننا نسمع ما يقول في مرحلة حاسمة؛ لحفز الملك بما يدفع الحدث قدما إلى الأمام، فقد كبرت سنُّه، ويخشى أن يضيع علمه، وطلب غلاما يورثه علمه وضلاله (٢).

ثم يعود إلى السرد ليصل في سلاسة ويسر إلى قلب الأحداث التي تبدأ هادئة (فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ)، ثم تتطور في مشهد لا يغني فيه الحوار ولا ينهض به؛ لتصل إلى صراع داخلي في نفس الغلام، من خلال تلقيه عن مصدرين متناقضين، ثم إلى صراع حسي بضربه من الساحر، وشكواه للراهب (فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ).

ثم يتخلل الأحداث حوارًا من جديد؛ ليخرج الغلام من المأزق الذي وقع فيه (فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ) وهذا أيضا مما لا ينهض به الحوار، ثم يتطور الحدث، ويتغير الموقف، فيعود الخطاب السردى الموجز، المعبر عن المفارقة بين موقف الحيرة والصراع الداخلي للغلام، إلى موقف الفصل بين الحق والباطل، تلك المفارقة التي يعبر عنها لفظ "بينما" في قوله: (فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ)، ثم يعود

(١) ينظر: السرد القرآني في قصة ذي القرنين، ص ١٥.

(٢) ينظر: صحيح القصص النبوي ٣٠٩.

إلى الحوار مرة أخرى، لا لتصعيد الأحداث، بل لإبراز صورة الصراع الداخلي في نفس الغلام (فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلَ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلَ؟)، ثم يعود للسرد الموجز فيما لا ينهض به الحوار وحسمه بناء على تَصَرُّفِهِ الشَّخْصِي، وتوفيق الله وكرامته، (فَأَخَذَ حَجْرًا).

ثم يعود إلى الحوار ليبرز لنا شخصية الغلام ويحيطنا بما لها من مميزات ممنوحة من الله تعالى (فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمُضِيَ النَّاسُ).

ثم يعود إلى السرد في بيان نتيجة هذا الفعل الذي لم يكن يُغني فيه أو ينهض به الحوار؛ لوصف ما كان من فصل في الأمر، وبيان للحق (فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ)، ومن بعدها يعود الحوار لبيان مكانة الغلام وتجهيزه ليستعد للابتلاء (فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بُنْيَى أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْنَلَى، فَإِنْ ابْتُلَيْتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ).

ثم يعود إلى السرد الذي يأتي سريعاً مكتفياً؛ لبيان ووصف نعمة الله على الغلام بإبراء الأسيقام لكن بصورة كثيفة ومن دون تفصيل ولا تطويل، وذبوع ذلك وشهرته بين الناس حتى وصل قصرَ الملك نفسه، وعلم بذلك جليسُ الملك، فأقبل إليه طالبا الشفاء، حاملاً الهدايا الكثيرة، وهو أيضاً مما لا يقوم به الحوار (وَكَانَ الْعُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسُ لِمَلِكٍ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ).

ثم يعود إلى الحوار الذي دار بين الجليس والغلام، والذي من خلاله تبدأ مرحلة الدعوة إلى الله تعالى: (فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ

شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِلَّا مَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ).

ثم ينتقل إلى السرد لوصف أحداث جديدة معتمدا على البناء المتنامي للأحداث وتدرجها وتطورها؛ ل يبدأ صراعاً من نوع آخر، صراع خارجي مع الملك وأعدائه وجنده (فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ).

ثم يعود إلى الحوار الذي دار بين الملك وجليسه بعد أن عاد له بصره، وهو مما لا ينهض به إلا الحوار الذي يضيف الذاتية على مقول كل شخصية، ويبرز مشاعرها المخفية وراءها، ويعبر عن خفايا النفوس ومكونات الضمائر (فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ).

ثم يعود إلى السرد لوصف تطور الأحداث وانتحائها منحنى آخر (فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ)...، وهكذا يتأدر الحوار والسرد في القصة بدقة متناهية، حسب المعنى المراد والمشهد أو المرحلة من القصة، والغاية من وراء سوقها؛ لتصعيد الأحداث وإبراز المشاعر المخفية وراء الشخصيات وفي حنايا نفوسهم، فيأتي السرد في وصف المشاهد ونقل الأحداث التي لا يغني فيها الحوار، ولا ينهض بها، أو لبيان تغير المكان أو الأشخاص، ويأتي الحوار في المواجهات التي تكون في مراحل التعرف على الشخصيات، لوضع المتلقي أمام كل شخصية ليعيش جو القصة وكأنه يسمع ما يقال، أو في مرحلة التصعيد والتأزم والحسم والحيلة والمكر؛ لدفع الحدث إلى الذروة، حتى تنتهي في المشهد



الأخير بالحوار الذي يلخص هدفها ويعلله بما يتلاءم مع سياقها في قول الرضيع لأمه التي تقاعست: (يَا أُمَّهُ، اصْبِرِي؛ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ).

تعقيب:

يُلاحظ أن القصة في البيانين أغفلت الحديث عن العقوبة الدنيوية التي حلت بالظالمين أصحاب الأخدود، فلم تذكر أن الأرض مثلاً خُسفت بهم، ولا أن قارعة من السماء نزلت عليهم... إلخ، بل انتهت بذكر مصير المؤمنين وهم يُلقون في الأخدود، مع بيان أن ذلك لم يكن في غفلة من الله عز وعلا، ولا بعيداً عن سطوته أو خارجاً عن قدرته، فهو سبحانه العزيز الغالب مالك السماوات والأرض (الكون)؛ وذلك لبيان أن مجال الجزاء ليس الأرض وحدها (١)، وليست الحياة الدنيا فقط، وأن ما يجري على الأرض وما يقع في الدنيا إنما هو الجزء البسيط اليسير الزهيد، أما الجزاء الأوفى على كل ما قدّم فهو في اليوم الموعود ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ

الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ النجم: ٤٠، ٤١ إن نعيماً وإن عذاباً حسب الأعمال والعقائد، جزاء أبدياً خالداً غير منقطع؛ تنبيهاً إلى أن هذا ما ينبغي أن يستعدّ له الناس وأن يعتدوا به، أما الدنيا وما يجري فيها فلا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا لم يرض الله تعالى نعيمها جزاءً لأوليائهم، ولا شقاءها جزاءً لأعدائهم، بل هي أهون على الله أن يجعلها جزاءً للمتقين، أو يجعل العذاب

(١) ينظر: أصحاب الأخدود دروس وعبر، من خطبة ألقاها الشيخ عبدالله بن علي الطريف في جامع إبراهيم القاضي، عنيزة- القصيم المملكة العربية السعودية بتاريخ ١٤٣٥/٣/٣٠هـ، وتم نشرها على موقع ملتقى الخطباء على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ١٤٣٥/٤/٣هـ.

فيها فقط جزاءً للكافرين، ولهذا وصف متاعها بالقلّة: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ آل عمران: ١٩٦، ١٩٧، حتى يقول المشركون يوم القيامة عن مدتها حين يُسألون: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ﴾ المؤمنون: ١١٣، فيأتيهم الجواب ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٤، ١١٥.

فترك مجازاة الظالمين المجرمين هنا يشير بقوة إلى أن الجزاء الحقيقي (ثواباً أو عقاباً) هو الذي ينتظر الناس هناك في الآخرة، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ البروج: ٩، ﴿فَدَرَّهْمٌ يُخَوْضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ الزخرف: ٨٣.

نعم، قد يُعَجِّلُ اللهُ العقوبة في الدنيا لبعض الظالمين والمجرمين والكافرين لحكمة يعلمها، كما أهلك أمماً مثل: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، وأهلك أفراداً مثل فرعون وقارون وهامان وغيرهم، غير أن هذا تعجيل لبعض العقوبة فقط، وقد يَتَخَلَّفُ فَتُدَّخَرُ العقوبة كلها لِيُوفَى المجرم عقوبته كلها كاملةً يوم القيامة، وإن عاش كما يعيش الناس ومات كما يموتون، وربما يتمتع في الدنيا أكثر من غيره ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَنفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ إبراهيم: ٤٢-٥٢.



هذا فضلا عن أن العقوبة الدنيوية لا تقتصر فقط على العقوبات الظاهرة من الإهلاك والأخذ والانتقام، بل هناك عقوبات تتسرب بخفية إلى نفوس الظالمين، وتتمكن منهم وهم لا يشعرون، فقد يملي الله تعالى للظالم ليزداد إثما، وليحيط به ظلمه، حتى يأتي يوم القيامة بكل آثامه وجرائمه فيلقى جزاءه كاملا في الآخرة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّهِمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّهِمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَدَابٌ مُّهِينٌ﴾ آل عمران: ١٧٨، فالعبرة بالمصير يوم يفضي الناس أجمعين إلى بارئهم الملك الجبار، فيؤفون أعمالهم، كل نفس بما كسبت رهينة في يوم قال الله عنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا﴾ الزلزلة: ٦-٨، فلا داعي للاغترار بمظاهر القوة والغنى والمنعة والتمكين في الدنيا، ولا داعي أيضا للبحث عن كارثة دنيوية تحل بالظالمين، فالجزاء مدخر هناك ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الدخان: ٤١، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: ٨٨، ٨٩، فذلك اختبار حقيقي يميز الله فيه الخبيث من الطيب، ويظهر فيه المخلص الذي يثبت على إيمانه ومبادئه مهما كانت المصاعب والمعوقات، ويراها في سبيل الحق هينة يسيرة.

الخاتمة

الحمد لله، وصلاة وسلاما على خير خلقه ومصطفاه، وبعد،، فقد حملت هذه الوريقات شيئا من الدراسة العربية لأنموذج (قصة أصحاب الأخدود) من بيانها المعجز، يقينا أن معايشة النظم العالي في هذا اللسان وإنعام النظر فيه يهدي إلى نتائج تساعد في فقه بيان العربية وتذوقه، أهمها ما يلي:

- بيّن البحث كيف انتظمت القصة (في الوحيين) في سلك واحد يجمعه غرضها الذي سرى في كل جزئياتها، وكيف تلائم محتوى القصة - في كلا الوحيين - مع سياقها ومقصدتها، فجاءت ناطقة بما يُثَبِّتُ أفئدة المضطهدين، ويُسَرِّي عنهم، ويُهَدِّدُ الطغاة المتجبرين، ويتوعددهم بأشد العذاب؛ جزاء وفاقا على جرائمهم، إنه على كل شيء شهيد.
- بين البحث كيف تناسلت معاني القصة وتفرعت أفكارها من معنى واحد، هو قوله تعالى: "قتل أصحاب الأخدود" في البيان القرآني، وقوله صلى الله عليه وسلم: " كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر" في البيان النبوي، فجاءت القصة في كل منهما وحدة متكاملة مترابطة، تمتد وتتمو ولا تبعد عن الأصل الذي يربط أجزاءها ويقوم بناءها، ويحقق غايتها.
- بين البحث دقة اختيار ألفاظ القصة التي تتاغمت وتناسقت على نهج يسير في مجرى المعنى، من مثل (قتل، الأخدود، النار، ذات الوقود) في البيان القرآني، و(ملك، ساحر، راهب، المنشار، شقّه، وقع شقّاه، الأخدود، خُدَّتْ، أضرم، النيران...) في البيان النبوي.

- نبه البحث إلى أوجه التشابه والاختلاف الموجودة بين محتوى القصة في الوحيين محاولاً رصد أسباب ذلك وتعليقه.
- جاء توظيف الأشخاص - (أصحاب الأخدود الذين تم تحريقهم فيه في القصة القرآنية، مضافاً إليهم الغلام والراهب وجليس الملك والمرأة وصبيها في القصة النبوية، في مقابل الطغاة العتاة "الملك وجنده وأتباعه في القصة النبوية " الذين أضمر ذكرهم في القصة القرآنية) - متلائماً مع سياق القصة وهدفها في الوحيين؛ تثبيتاً وتسليّةً وتصبيراً لكل من يتعرض للإيذاء في سبيل العقيدة، ومع غايات الرسائل الإلهية.
- جاء السردُ الموضوعيُّ الذي اعتمدت عليه القصةُ في البيان القرآني دعوةً إلى الثبات والصبر والتمسك بالعقيدة والثقة بما عند الله.
- أسهم المزج بين أسلوبَي السرد والحوار الذي اعتمدت عليه القصة النبوية في إبراز المشاعر المخنقة وراء شخوصها وفي حنايا نفوسهم؛ إبلاغاً في التأثير والتثبيت والتصبير لمن جاء يشكو المعاناة والآلام في سبيل العقيدة، من خلال استحضار وقائعها؛ ليضع السامع في قلب الأحداث يتفاعل معها ويتمثلها.
- المشهد الذي عرضه البيان القرآني لتعذيب المؤمنين وتحريقهم وفتنهم في البيان القرآني ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ البروج: ٤ - ٧، عبّر عنه البيان النبويُّ بجملة واحدة، هي

قوله: "فعلوا"؛ للقفز فوق هذا الحدث الجسيم وما يشبهه مما يتعرض له المؤمنون في مكة من الإيذاء والتعذيب والتنكيل، وكأنه لا شيء؛ لينتهي الأمر بما هو أولى من التركيز على هذا الحدث في حد ذاته، وتجاوزه إلى التحمُّل والتصبُّر، ثقةً بقدرة الله تعالى على إنهاء هذه الأحوال وتخليصهم من تلك الأهوال، ولهذا ختمت القصة في البيان النبوي بقوله صلى الله عليه وسلم: "حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبي لها فتعاسست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق" الذي يمثل - بما فيه من شجاعة وإقدام وثبات على الحق - مفاجأة مذهلة في القفز فوق الأهوال، وتخطي العقبات، واستعذاب الآلام في سبيل العقيدة، فبدل أن يضعف الناس أو يهربوا لم تسجل الرواية أحداً منهم تراجع أو جبن أو هرب، وما كان منهم إلا الجد في اللحاق بركب الثابتين على الحق، وكأنهم يتلذذون بتقديم أرواحهم فداءً لدينهم، باستثناء هذه الحالة الفريدة إشفاقاً على صبيها الذي خاطبها أمراً إياها بالثبات والصبر، مُبَيِّناً أنها على الحق: "يا أمه، اصبري فإنك على الحق"، فصبرت واقتحمت النار، عند هذا الحد انتهت القصة في البيان النبوي بعد أن بينت لنا ما طواه البيان القرآني وأجمله، وهذا يؤكد ما بين البيانين من تناسقٍ وتناسبٍ وتكاملٍ، فما سكت عنه البيان القرآني من سياق القصة وبداياتها وضحه وركَّز عليه البيان النبوي، وما وضَّحه البيان القرآني وركز عليه أشار إليه مجملاً البيان النبوي.

- اختص البيان القرآني بإيراد بعض التعقيبات الختامية التي تلوِّح بمعاقة المجرمين وإثابة الثابتين على العقيدة، والتوبة على التائبين،

وكل ذلك خلت منه القصة النبوية؛ لأن منهج البيان القرآني التركيز على جانب العظة والعبرة التي تبرز جوانب الوعد والوعيد وما يناسب ذلك من صفات العظمة والقوة والعلم والقدرة وغيرها من الصفات التي تمكنه من قبول التوبة ممن تاب، ومجازاة العاصي والمطيع، وهذا من خصائص رب العباد وحده؛ لأنه لا يغفر لمن تاب من المجرمين مستحقي العقاب إلا من اتصف بطلاقة القدرة، وكان في غاية العظمة، بحيث لا راداً لما يفعل، ولا معقب لما يحكم، وكذلك الأمر في عقابه وإثابته؛ لأنه سبحانه هو الفاعل المختار، فضلاً عن ملاءمة ذلك لسياق القصة المتصل في السورة وسوابقها ولواحقها، أما البشر فيقف حدُّهم عند نهاية الحدث الدنيوي؛ ومن ثم خلا البيان النبوي من الحديث عن التوبة وقبولها من هؤلاء، ولم يذكر الحديث شيئاً عن بطش الله وعذابه الأخروي، وركّز فقط على بدايات القصة وسياقها وما يبرز جانب الدعوة فيها وما يلقاه الدعاة وأتباعهم من مشاق في سبيلها، وهذا ما يتلاقى مع حال النبي صلى الله عليه وسلم.

تم بحمد الله تعالى

ثبت بأهم المصادر والمراجع

- أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز البياني د عمر محمد بايذق، طبع دار المأمون للتراث الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، أ د/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة القاهرة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الولوي، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي ١٤٣٦ هـ.
- بدائع الإضمار القصصي في القرآن، كاظم الظواهري، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.
- تاريخ نزول القرآن، محمد رأفت سعيد ٢١٣، رقم الإيداع ١٤١٥٢/٢٠٠١، من دون.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية، بدون.
- التبيان في أيمان القرآن ابن القيم، دار عالم الفوائد، بدون.
- تنمة أضواء البيان، عطية محمد سالم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧ هـ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠ م.
- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان



- الأندلسي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض شارك في التحقيق د زكريا عبد المجيد النوقي، د أحمد النجولي الجمل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية لبنان- بيروت ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.
- التفسير المنير، وهبة الرحيلي، الطبعة العاشرة، دار الفكر، دمشق ١٤٣٠ هـ.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل، ودار الأفق الجديدة، بيروت.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، دار طوق النجاة.
- جماليات السرد القرآني في قصة ذي القرنين دراسة سيميائية، د أسامة عبدالعزيز جاب الله، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة، العدد ٤٥، شتاء ٢٠١٠ م.
- الجملة القرآنية في قصة صالح عليه السلام دراسة بلاغية، صلاح الدين محمد أحمد غراب ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.
- حاشية الشهاب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧ هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود

- الألويسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت بدون.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، الطبعة الثانية، دار القلم دمشق ١٤١٢هـ.
- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦هـ.
- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٠هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- صحيح القصص النبوي، عمر سليمان عبدالله الأشقر، الطبعة الأولى، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الصور البيانية، حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة،



١٩٦٥م.

- الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية، محمد حسين علي الصغير، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، شبكة الفكر، دار الرشيد ١٩٨١م.
- فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين، الطبعة الأولى، دار الشروق ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، سعد أبو رضا، الطبعة الأولى، منشأة المعارف ١٩٨٧م.
- في السرد، عبدالوهاب الرقيق، دار الكتاب العربي القاهرة ٢٠٠٤م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، موقع التفاسير
<http://www.altafsir.com>
- قصة أصحاب الأخدود (١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، محمود عشري، موقع طريق الإسلام.
- قصص القرآن عظات وعبر، د سعيد عبدالعظيم، الطبعة الأولى، دار العقيدة للتراث، القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ.
- لسان العرب، ابن منظور الطبعة الثالثة، دار صادر بيروت

- مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث - دمشق ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
- المصطلح السري للقصص، جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣ م.
- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد - الرياض ١٤٠٩ هـ.
- مع قصص السابقين في القرآن دروس وعبر في الإيمان والدعوة والجهاد، د/ صلاح عبدالفتاح الخالدي، الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.
- معاني القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق د/ هدى محمود قراعة، الطبعة الأولى مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، عالم الكتب - بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق أحمد يوسف النجاتي، محمد علي



- النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الطبعة الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، بدون.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١ هـ. ٢٠٠٠ م.
- المفردات للراغب الأصفهاني، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق ١٤١٢ هـ.
- المفهوم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) حقه وعلق عليه وقدم له محيي الدين ديب ميستو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمود إبراهيم بزال، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ودار الكلم الطيب، دمشق بيروت ١٤١٧ هـ. ١٩٩٦ م.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ. ١٩٧٩ م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٩٢ هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ. ١٩٩٥ م.

